

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



S.B. LIBRARY

مكتبة خريجي القسم الانجليزي
من جامعة فؤاد الأول

مصطفى طه مبيب

سلاسل محمد

822.33
H116SA

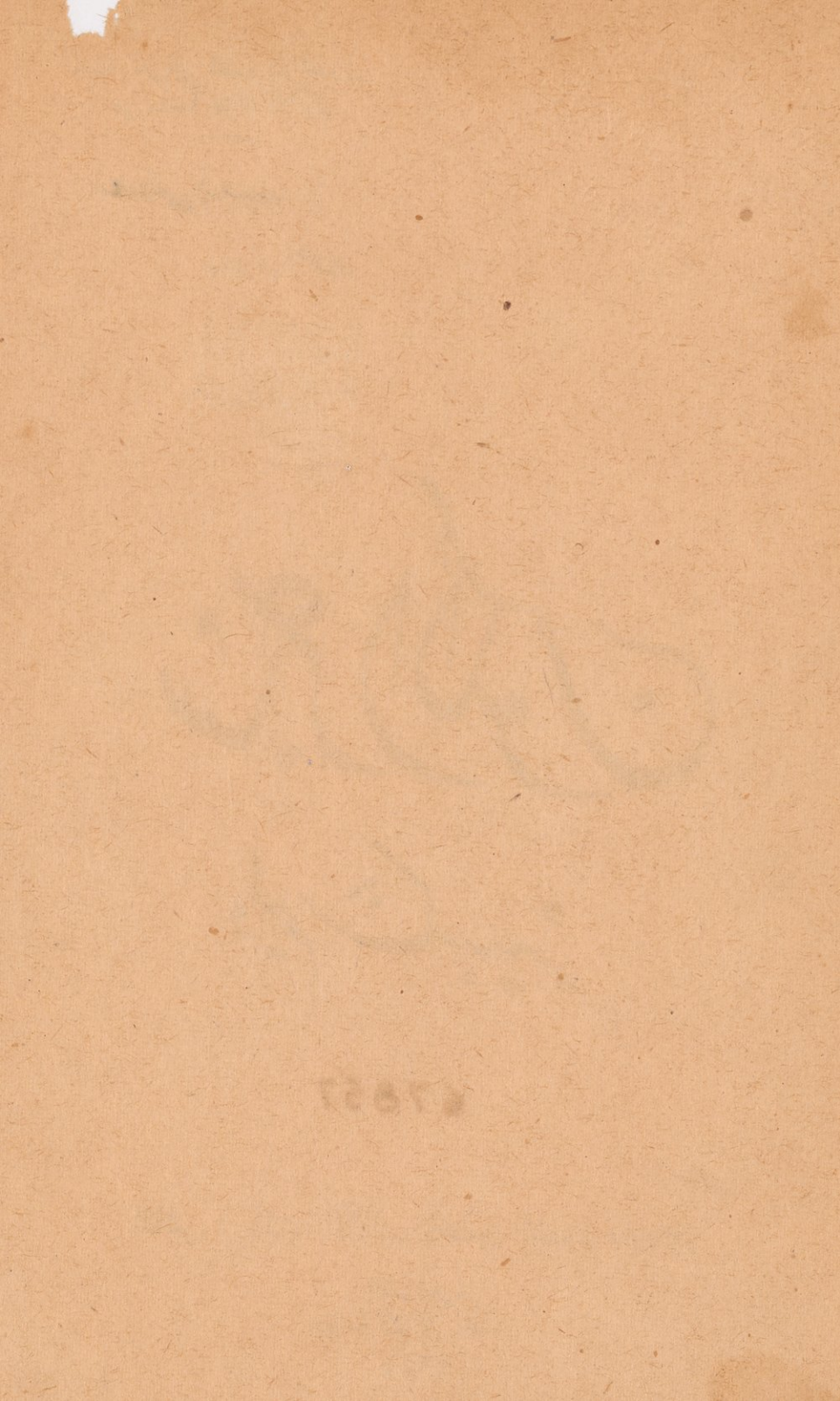
شعر الكون

وليم شكسبير

67857

الناشر : مكتبة الآداب بالجاميز تليفون ٤٢٧٧٧

القاهرة
مطبعة التوكل بالجاميز
١٩٤٤



He was of his age
He was also of the ages

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لعل كاتباً لم يلق شئ يسير من تمجيد
وتعظيم وذيوع صيت ، نقلت كتاباته إلى سائر
لغات الدنيا وتناوله الكتاب جيلاً بعد جيل
بالبحث والدرس والتحليل . ولقد خطت أقلام
العابرة وجادت قرائح الموهوبين بالشئ الكثير
واسكن أحداً من هؤلاء المخلدين لم يسم إلى ما
سما إليه شاعر الكون فستبقى كتاباته مدى
الدهر روضاً فسيح الرحبات يمرح في خمائله
الخيال وينهل من مورد العذب حس الجمال

وإذا كان الانسان هو جوهر الكون
فان شاعرنا لم يترك صغيرة ولا كبيرة في خلق
الانسان وطبعه وتكوينه إلا صورها تصويراً
رائعاً فيه حيوية. وصدق حتى أصبحت كتاباته
سجلاً صادقاً لجوهر الطبيعة الانسانية أينما كانت
من أجل هذا كان خلود شكسبير
ومن أجل هذا حرصنا على أن يكون
باكورة إنتاج هيئتنا الفتية هذا البحث عن
شكسبير

وإننا ونحن نقدم كتابنا الذي نعتقد أنه
الأول من نوعه كدراسة كاملة وافية في لغتنا
عن شاعر الكون نرجو أن نوفى بعض ما
علمنا من حقوق نحو اللغة وطالب الأدب
والله ولى التوفيق .

رئيس الهيئة
محمد نقي

نوفمبر سنة ١٩٤٤

الفصل الأول

مهـد العبقريّة

منذ أربعة قرون تنفس صبح الحياة في بلدة من بلاد الريف الانجليزى عن مولد فتى لاسرة تجرى في معمعان الحياة جريان الاسر التى لا تنتمى الى عراقة أصل يوفر لها من أسباب النعيم الموروث ما يدفعها في خضم الحياة ثابتة القدم نائية عن التفكير في مر أو حلو فالحياة لديها راتبة النعيم دانية القطوف ميالة الاعطاف لا تدعو الى جد ولا تستشير الى همة... ولاهى من الأسر المعروقة المكدودة التى لا تعرف من الوان الحياة الا الشظف في العيش والخشونة في المظهر والرقّة في الحال... تنفس صبح اليوم الثالث والعشرين من شهر ابريل سنة الف وخمسمائة واربعة وستين عن مولد غلام لأسرة متوسطة الحال في بلدة استرانفورد على نهر الآفون... ولم يكن هذا الوليد غلام الأسرة الأول بل سبقه الى الوجود اثنان فلم يكن مولده محل حفاوة ولا موضع اعتبار بل مر عابرا أو أقل من العابر كما تمر ملايين المواليد في

كل عام وفي كل جيل . . . وماذا يهم الناس من مولد غلام لرجل متوسط الحال أو لرجل غنى دهمته الأحداث وعفت على ثروته ومجده خطوب الزمن التي لا ترحم

ولد هذا الغلام في غير ضجة ولم تحط مولده مراسم ولا سبقته علامات ولا ارهاصات وما فكر انسان ان هذا المخلوق العاثر سيصبح اسمه في فم الزمن عنوانا على المجد الخالد والعبقريّة الفذة - ولو ان الاقدار كشفت عن خبيثة سرها المكنون لكان أمر هذا الغلام قد تبدل من الاغلاق الذي أطبق على طفولته والظلام الذي خيم على أيامه الاولى الى نور وضاح يكشف تفاصيل حياته ويوضح خطواته في اسباب واعجاب ولكنها الأقدار أثبت أن تميّط اللثام عن لوحها المحفوظ فتركت الناس على بحيتهم تتداول ايديهم جوهرة من أنفس الجواهر في غير مبالاة ولا حرص عليها بل تركت هذه الجوهرة تتقاذفها الايدي وتركلها الأرجل فما تعهدا انسان بصقل ولا سهر على صيانتها وحفظها مخلوق وان يكن قد أصابها تنميق أو صقل فهو تنميق خشن وصقل بدائي لا يظهر حسنا ولا يجلو رونقا وحتى هذا

الأعداد البدائي مشكوك فيه لا يكاد يجد من يدعمه

✧ ولد هذا الطفل في قرية استرانفورد على نهر الآفون فتفتحت عينه كما تفتحت آلاف العيون من قبله على مناظر خلابة وشت بها الطبيعة السخية حواشي هذه القرية الجميلة . . . ولد في قلب الريف الانجليزي الجميل تداعب أذنه زقزقة الطيور وأغاريد العصافير ويهز أعطافه خرير الماء يندفع في موسيقى حلوة هادئة بين شطآن نهر الآفون الجميل . . .

✧ ترعرع الفتى في ظل ممدود من رعاية أب تبسم له الدهر فاقبلت عليه الأيام على عهدا تناجيه وتناغيه وتبسط له من ظلمها الوارف وقاية ضد الحدثان ✧ أمنت له عيشه ويسرت له رزقه واسعدته بالزوج الغني وارثة الضياع واعزته بالمال والبنين حتى أضحي وهو المستأجر يتسنى في خطى مسرعة ملحوظة درجات السلم نحو القمة والمجد فيملك الضياع ويصبح سيدا متصرفا وتاجراً نافعا يحرص على وده الناس

✧ في هذا الجو المليء بأسباب السعادة واليسر ترعرع الطفل ومشى بين جنبات الوديان الخصيبة حيث ضياع أبيه وأعمامه وتنقل من أكام الأزهار المتفتحة الى حقول القمح الذهبية ومن

الغابات الخضراء والأحراش المتكاثفة الى المروج الخضراء والمراعى
الباسمة ومن التلال فى ولكوم الى الشيطان الشاعرية على
ضفاف الأفور

بقعة من الجنان مفعوفة الالوان تنطق بالحياة الزاخرة وترسم
معالم الوجود الكاملة تتدرج فيها الطبيعة بين السهل والجبل وتنقل
من الوادى الى الغابة ومن التل الى المنخفض ومن النهر الى الحرش
ومن المروج الخضراء الى البلقع الجذباء ، صور من الطبيعة
متفاوتات والوان منها مختلفات قل أن تجتمع فى بقعة وندر أن
تلتقى فى مكان ... ولكنها فى سترانفورد قد التقت فلتت واجتمعت
صدفة وكأنا التقاءها المباغت واجتماعها المفاجيء جاء منبثا بان
الأقدار قد اختارت هذه البقعة الغربية العجيبة لتكون منبت عبقر
ومهد عبقرية ... لئن زحرت الطبيعة فى هذه البيئة بما يصقل
النفوس الحساسة ويملؤها جمالا والوانا ويهيئها للحياة الخصبة فقد
جاد عليها الزمان بصنوف من المعالم وعديد من الحيات تمد العين
الفاحصة والأذن الواعية بشتى الصور الأخاذة التى تنطبع فى
النفوس فتترك فيها أثرا لا يمحو وبمتنوع من الاصوات والأصدا
تفعم الحس بموسيقى فياضة سلسالة تظل كامنة حتى تحررها عوامل

جديدة فتنتطق من عقالها حلوة طروبة تأخذ باللب وتملك
مجامع القلوب

طفولة تنفتح للحياة كما يفتح كم الزهرة تحت فيض من دفء
الابوة وتحت فيض من جمال الحياة ورفتها... نسائم رقيقة
وزهور جميلة ونهر وشجر وصيد وطراد... وعبت وطفولة ناضجة
فمن لعب باعشاش الطيور الكامنة في قمم الشجر إلى امسك
الفراشات الجميلة ذوات الالوان المتعددة الى مطاردة الغزان في غابة
أردن المتاخمة لسترانفورد... مناظر من الطبيعة الخلابة بهرت
عين الفتى في صبوته والصبي ابدا سن التلقى وسن الاستطلاع وما
نأخذه في الصبي يتعمق أثره في الذاكرة ويظل معنا لا ينضب
يوجه تجاربنا ويكيف أعمالنا مهما تقدمت بنا السن وتباعدت
بيننا وبين بيئة المنبت مرافى الحياة

بيد أن البيئة بما حوته من متفاوت الالوان الطبيعية لم تكن
وحدها التي أثرت في فتانا وأنطقته بالسحر والجمال فالبيئة وحدها
لا تكفى إذ لو كانت المسيطرة على أقدار الرجال الخالقة للمواهب
الحافزة للهمم لحفزت استرانفورد همم الكثيرين من الآف
الفتيان الذين مروا بها وترعرعوا في أحضانها وسقوا الحياة بين

ورودها وتلاها ولما قصر همها على ذلك الفتى النحيل الذى ولد
مغمورا وعاش حيناً من الدهر منكورا حتى اذا أتمت الحياة
دورتها واستدار الفلك أصبح شيئا مذكورا يملأ ذكره كل بيت
وتتجاوب اسمه كل جماعة من مشرق الأرض الى مغربها

صحيح أن هذه الصور البارة التى أضفتها يد الطبيعة على
استرانفورد قد تجلى أثرها فيما أبدعته نفس هذا الفتى وصدر عنه
من كتابات وصور فاسترانفورد بما فيها من فتنة وجمال طبيعة
كانت الركاز لكل صورة ترسمها هذه النفس المحسة الزاخرة
بالحياة وهذا أمر وجدانى لا يمكن ان يتخلف فنحن نعى بعيوننا
ما يمر بنا من مشاهد ونحيط بأذاننا ما يدور حولنا من أصوات
فاذا أحببنا ان نرسم المشهد أو نحاكى الصوت لم نلجأ الى الخيال
الصرف طالما النفس الواعية فينا مليئة بشتى الصور وعديد
الاصوات حفظتها على مر الأيام . وأبقتها كامنة حتى استثارها
الحاجة ودفعتها الى الظهور فلا عجب اذن ان يكون للبيئة أثرها
فيما نعمل وفيما نتنح وانما العجب أن يكون البيئة وحدها هى
الخالقة والمكونة للشخصية والمفتقة للعبقرية إذ لا بد الى جانب
البيئة من عوامل أخرى تميز بين شخص وشخص وعوامل لا تتوفر

الكل واحد من الناس ولا تنهياً في كل زمن من الأزمان عوامل
تفسر هذا الشذوذ في الاختيار وتفسر هذا القصر في حيز فرد
بكل ما يتوفر لجيل بأكملة من مزاياحتي تحيله واحد زمانه بل واحد
ازمان متعددة . . . ولكن ماهي هذه العوامل أهي سر من الاسرار . .
أجل هي سر من أسرار الوجود لا يوحى به الا الى الفرد العلم
ولا ينفج بمغزاه الا في الروح التي يقع عليها الاختيار لتبلغ
رسالة العبقريه سواء أكانت تلك الرسالة نبوة أو شاعرية
أو هداية أو خطابة أو سياسة أو زعامة أو بعثا

* ولد الفتى في قرية إسترانفورد على نهر الآفون من أعمال
انجلترا وترعرع في احضان بيئته وهيئت له هذه البيئة المتصلة بين
المدينة والقرية مشاهد متعددة وتجارب مختلفة فهو قد فهم حياة
المدينة كما فهم حياة القرية وأدرك ما بين الحياتين من تفاوت
وهو لا شك قد استمع الى أقاصيص الفلاحين ووعى الأغاني
الشعبية التي يتناشدها العامة جيلا بعد جيل وأبصر المواكب العامة
بما تحويه من طرب وأهازيج ولا ريب انه في طفولته هذه قد
استفاد معارف عن الحياة وعن وسائلها وحفظ من الاساطير ما
جمع حكمة الاوائل وتقاليدهم . . . وانا لنستطيع القول في غير

تردد أن طفولة الفتى كانت طفولة خصبة حافلة بالألوان والصور
 مليئة بالمشاهد غاصة بالقصص والاساطير المنوعة كما نستطيع
 القول ان الطبيعة لعبت دورا هاما في حياة هذا الفتى وأثرت فيها
 تأثيرا كبيرا كما ان الحياة بأحداثها قد أمدته بمادة لا تنفد من
 كوارثها وعبرها حتى صار لسانها الناطق وترجمانها المعبر من
 نعم الفتى بطفولة مسعدة ذات فنون والوان وتقلب في جدة
 حتى جاوز العاشرة وسواء بعد ذلك ان يكون قد ذهب الى مدرسة
 القرية ليتعلم او أن ايدى المربين قد تعهدته على عادة أهل الزمان
 فهذه أمور وتفصيل ما عني أحد بتسجيلها ولا يتناولها فان أحدا
 لم يكن يحسب حسابا لهذا الفتى بل ان أحدا لم يعد يهتم لهذه
 الاسرة بعد أن اصابها الاملاق وقضت عليها المتربة فان يكن
 لهذه الاسرة معجبون فقد فرقتهم أيدي الحداث التي لا ترحم
 وردتهم الى مناهل أخرى يلتمسون منها العون فنسوا في حاضرهم
 ماضيهم وضاعت بذلك آثار هذه الاسرة وانمحت أخبارها
 وتفرقت رواياتها ولم يبق للتاريخ الا بقايا ضنت بها العاديات عن
 المحو فظلت مبتورة تعين على شطحات الخيال وترسم للمتلامل
 اطلالا له ان يحيلها قصورا ومعابد وله أن يجعلها اكواما وصوامع

على أن من المحقق هو أن فتانا في سن الثانية عشرة قد شهد تحولا في الحياة التي عهدها فاترب أبوه واملق ذووه وضاع المال واتبعه الجاه واضطرت الاسرة وقد كثرت عياله واضاقت ارزاقها ان تنحدر عن مستوى ألفته الى مستوى لم تألفه وأن تطرق للكسب ابواباً لم تطرقها وهكذا الزمان إذا أتم لانسان النعمة وافاء عليه الغنى والجاه اخذ ينقض على حواشيه يداعبها ويقلم من أطرافها ويجوز على أصولها حتى يأتي يوم فاذا الغزل قد نقض من أساسه واذا الثروة قد تبخرت واذا النعيم قد زال واذا العز قد أعقبه ذل واذا الترفع قد أتبعه السؤال ، انقلبت حياة الفتى وبعد أن عاش لاسائلا أبداً ولا مسئولا أضحي يرى بعينيه الدنيا تحول والمعين ينضب والخلان تتفرق والاب يمرض ولكنه يكافح في سبيل الكفاف لاولاده الخمسة .

ذاق مرارة العيش كما ذاق حلاوته وعاش ليرى بعينه صنوفا
من المعاملات وضروبا من الحياة الخشنة ما كان يمكن أن يدرك حقيقتها وأن يقف على كنهها لو أنه اكتفى بالسمع أو القراءة عنها أما وقد دفعه التيار الجارف دفعا فيها أما وقد عاش في اكنافها وتنفس في احضانها فقد خطت في سجل تجاريه خطوطا حية لا

يمكن ان تتحول = لقي فتانا في الخامسة عشر حياة جديدة حياة
كفاح من أجل العيش حياة كد وسعى في سبيل عون الأسرة
المتداعية والأخذ بناصر الأب المتخاذل الذي تفرق عنه الانداد
وضيق الخناق عليه الدائنون حتى اضطروه الى بيع ما يملك ومالا
يملك وتركوه صفر اليدين لا مأوى ولا معين

ومهما يكن من شيء فان هذه الضربات المتلاحقات والنكبات
المتتاليات والاشجان الآخذة برقاب الاشجان قد أثرت في نفوس
الفتيان وتركت فيها ندوبا عميقة وهم بعد طرية أعوادهم غضة
اجسامهم رقيقة نفوسهم حساسة مشاعرهم ولا غرو أن يكون
الأخ الأكبر هو صاحب النصيب الموفور من هذه المحن فهو
وحده الذي أدرك الأيام الحلوة وعرف شاسع الفرق بينها وبين
الأيام المرة بل هو وحده الذي أصابه الاملاق في الصميم فقد
كان يجرى مع ثرب ممن على شاكلته في المدرسة طورا وفي
الحدائق طورا وفي الثروة حيناً وفي الجاه حيناً آخر فاذا هم يجرون
في طريقهم وهو وحده يتخلف لالذنب جناة ولا لعيب فيه ولكنها
المقادير تباعد بين الناس وتفرقهم سبلا في الحياة — نعم كان
فتانا أشد الأسرة احتمالاً لاثار المتربة لانها أصابته في الصميم

وحرمة من أن يسير في الطريق الذي اختطه لنفسه — ترى لو
ان الامور جرت في اعتها فلم يكن في طريقه الى اكسفورد أو
كامبردج وترى لو أن الامور سارت سيرها الطبيعي فلم يكن له
شأن آخر... وترى وترى وما اكثرها لكنهما لا تجدى شيئا
ولا تغير واقعا على ان الذي يعنيننا من كل هذا هو ان الفتى في
هذه السن الباكرة قد اصيب بخيبة أمل وما أشد الصدمة التي تنجم
عن خيبة الأمل فانها ترهف الحس وتزيد في حساسة الاعصاب
غير الفتى من غير شك مجرى حياته تغييرا عنيفا واضطرابا
الى ان يكبح جماح آماله وأن يسلك سبيلا وعرا يواجه فيها الحياة
الخشنة في غير عدة ولا اعداد فكان لا بد له ان يلقي صنوفا من
الخيبة وضروبا من الحرمان وان يكابد من المشقات والعسر ما
يملا نفسه الفتية مرارة والمأ، نزل فتانا الى معمعة الحياة المدهمة
نخاض غمارها وتقلب في حرفها المختلفة ولم يأنف في سبيل أن
يقيم أوده وأود أسرته من ان يساهم في أى حرفة شريفة تدر عليه
المال وسواء أصبح ما قيل من أنه اشتغل جزارا بذبح العجول أو
غير ذلك من الحرف فما يعنيننا هذا في قليل ولا كثير الا بمقدار
ما يشع من ضوء على ما أصابه هذا الفتى من تجارب الحياة

المتشعبة في هذه السن الباكورة

امتلات جعبة الفتى بالتجارب الحافلة منذ نعومة أظفاره
وقاضت نفسه بالمعرفة للحياة في شتى مظاهرها ووقعت عينه على
الجمال تنكسوبة الطبيعة مرابع الغزلان ومروج الذهب وتفتحت
أذنه لموسيقى الطير في وكناتها ولحلاوة تسلسل الأمواج وخرير
النهر وامتلاً صدره بقليل أو كثير من المعارف وعاما أيام الدرس
والتحصيل فحفظ كثيرا من أقاصيص الأغريق واللاتين ووعى
الكتابة اللاتينية واليونانية وكان له فيهما حظ اعانة على القراءة بها
وعلى البحث والاسترسال وراء النصوص القديمة التي كتبت في
هاتين اللغتين من تاريخ أو قصص — أطبق الفتى صدره وهو في
بكور الحياة وفجرها الرطيب على مشاعر وأحاسيس ومعارف
وتجارب لم تكن لتتوفر لغيره من أترابه في هذه السن مهما جد
في تحصيلها وكد سعيها وراء جمعها ولم يبق له من ضروب الحياة
المتشعبة الا ضربا واحدا لم يتذوقه ولم يألفه — أترى ظل محروما
من هذا اللون الجديد أمدا طويلا؟ كلا فما كان لمثله وقد انضجته
التجارب وسوته الحوادث وسارعت به الى الفتوة قبل أوانه أن
يؤجل هذه التجربة الزاخرة تجربة الحب تجربة الحياة والزواج —

فعم كانت حياة فتانا في عهدنا الاخير متقطعة الاسباب حالكة
الجلباب لا توحى بأمل ولا تحض على زواج ولا استقرار ولكن
منذ متى كانت الحياة الزوجية نتيجة الثراء والميسرة ومنذ متى خضع
الحب للاستقرار والهدوء ومنذ متى كان للعشق عقل موزون
وشريعة مرسومة — الا أنها الحياة تدفع إلى أعمارها من يجد
ومن لا يجد والا أنه الحب تمسك في شراكة من يستقر ومن لا
يستقر — ومتى كمل للمرء شعور حساس وفتوة ناضجة ورجولة
باكرة في كل سلاح بعد ذلك في دنيا الحب مغلول وكل منطق
في لغة المحبين غير مقبول — ان الحياة تزخر بالزيجات المتعسة
من حيث المادة ولكنها حية من حيث الحب ناضرة من حيث
الأمل — الا ترى إلى المحبين يطوون الحشا على المسغبة
ويعيشون على الغذاء الروحي تتناجاه نفوسهم وتتبادل
أرواحهم ولولا هذا الأمل الحبيب ولولا هذا الرضى ما عاشت
هذه الزيجات التي تجاوز الآلاف عدا ولا انجبت بنات ولا بنين

في عنفوان من رجولة باكرة أقبل فتانا غير هياب ولا وجل
على الزواج وهو يعلم ما وراءه من متاعب له ولأسرته وهو يعلم
أنه يزيد به ضعفا على إباله ولكن ما الحيلة والحب هو الحب

والحياة هي الحياة ما أوقف جريانها تفكير ولا منع سريانها
مصاعب.... تزوج وهو في سن الثامنة عشرة من امرأة تفوقه
سنا بثمان سنوات ولها ولد من غيره ومن بلدة متاخمة لمدينته
فهل رضى بها مع ما رأى من حالها أم هو الحب أوقد نار فتوته
فغشى على كل منطق وكل بصيرة فآتم الزواج ليهدأ ثائرة نفسه
ويهدأ ثائرة قلبه — مهما يكن من أمر فقد تزوج الفتى بحبيبه
الفؤاد وأقبل بها يسعى الى دار أبيه وسواء أثار الأب أم هدأ فقد
رضى بالأمر الواقع حتى إذا ناء بعبء الحياة المتثاقل طلق
العمل وانزوى في عقر داره كسيرا حزينا تحف به أشباح الماضي
الباسم فتثقل كاهله وسواء علينا انتهى الأمر بالأب إلى السجن
لعدم استطاعته دفع غرم مالى أم لم ينته فان ما يعيننا من هذا
القدر من الحديث هو أن ندرك أن عبء هذه الأسرة الكبيرة
المتفرعة قد وقع على كاهل فتانا ولما يزل غض الالهاب فكيف
صارع الحياة من أجالهم وكيف استطاع أن يكفل لهم القوت بل
كيف استطاع أن يعيد من مجدهم ما نهدم ومن ماضيهم ما اندثر
وان يقيم على اطلال ذكراهم منارة عالية تشع نورا يهدى
الحائرين ويسر العابسين ويذهب الحزن عن المحزونين ويرد

الصواب الى المسرفين في ما لهم وعقولهم — كيف استطاع هذا
الفتى الممرور عيشه المتقطعة وسائله المثقل كاهله أن ينفذ عنه
كل هذه الأشياء وان ينفخ في مزمار الحياة مزامير عاشت مع
الزمن تسر وتحزن وترضى وتغضب وترفع وتذل مزامير لها
من قوة الوقع وجمال الترتيل ما سواها بآيات التنزيل

ترى من هو هذا الفتى الذى تحالفت الطبيعة والأيام على
اعداده وهياً له الوجود مراتع للصبي مليئة بالجمال والالوان
وحيته الايام صفاء وبهجة ثم قلبت له ظهر المجن فاذاقته مرارة
وبأساً وقلبت على عينيه من ضروب الحياة عاليها وسافلها وطيبها
وغشها ما ملأ صدره بالحوادث والعبر . أ كانت الأقدار تغص
مسرح حياته بهذه المشاهد المتعددة لانها تريد أن تنطقه بالحكمة
وأن تشعل بين جنباته من نيران وحيها ما يورى به زنده فتندفع
هذه الصور والمشاهد من صندوقها المظلم الى ضوء الحياة المنير

ذلك كان التقدير ولكن احدا لم يدركه وذلك كان صنع الله
ولكن احدا لم يتنبأ به أما الفتى فكان وليم شكسبير الابن الثالث
لجون شكسبير تاجر الجلود والقفازات فى مدينة سترانفورد على
نهر الآفون — ولد وليم فى سترانفورد وعاش فيها حتى أكمل

العشرين من عمره فانطبعَت صورها الخلابه في نفسه الحساسة ذلك لانه ابدا كان دائب التنقل بين ربوعها ومعانيها وبساتينها وضافها وغاباتها لم يمنعه الكمد في سبيل العيش من أن ينهز أوقات فراغه ليعود الى مراتع صباه ومسارب فتوته يجرى بينها كما كان يجرى مطاردا الغزلان حيناً والطيور حيناً آخر

ولم يمنعه هذا الكمد المتواصل من أجل العيش من أن يغذى نفسه الشاعرة بالجلوس الى ضفاف الآفون متأملاً سريان مائه مصغيا الى خرير أمواجه وكان ولیم يجد الراحة في تلك اللحظات التي ينتزعها من حياته الصاخبة انتزاعاً فيجلس فيها الى الطبيعة يسكن اليها تأثر قلبه ويملاً من جمالها وجلالها نفسه نشوة تعينه على تحمل أثقال الحياة

تلك كانت أيام ولیم الأولى في سترانفوردمعرفه انسان ولا أحس به مخلوق عاش مجهلاً لم تبد عليه آية سمة من سمات النبوغ ولا بدرت عليه علامة من علامات العبقرية — قضى صباه وفتوته نسياً منسياً يئن باعباء الحياة كما يئن الملايين ، يشرد حيناً ويستقر حيناً آخر طلباً للرزق وسعياً وراء المادة التي تحفظ له أوده وأود عياله فقد زادت الأيام عبئاً على اعبائه فرزق من زوجته أن هافوى

بثلاثة أبناء انضموا إلى الأسرة الوافرة العدد — وأخيراً لما ضاقت الأرض بوليم فكر في النزوح عن استرانفورد لعله يجد في غيرها رزقا موفوراً يستطيع معه أن يوفر لهؤلاء الجياع أقواتهم... وعجّلت الحوادث الفكر وأخرجته إلى حيز العمل فقد وقع ولیم في نزاع مع أحد الملاك من السادة حول غزال طارده في أرضه اشتكاه من أجله فعبّل ولیم رحيله عن أرض الوطن طلباً للرزق وسعيّاً وراء المجد ونأياً عن المشاكل وإثارة للسلامة — خرج من استرانفورد لا مال معه ولا بنون إلا عقله وساعده قاصداً لندن ، وفي لندن تهيأت له من المصادفات العجيبة والمقادير الغريبة ما ملأ بقصة هذا الفقي المغموّر صفحات التاريخ وما جعله في مرتبة الخالدين من رجالات العلم والأدب... فكيف أمكن لهذا الفقي العاشر الجد أن يخط طريقه في لندن وأن يعيش... ؟

عصر خالد



إذا كانت المقادير قد اختارت لوليم مكان ظهوره فوشت
بالجمال والفتنة تلك البقعة المباركة التي حظيت بمنبته فهل عنها أمر
اختيار الزمان الذي يظهر فيه وهل جلت الزمان هو الآخر
وشحته بالأعاجيب وأمدته بشئون وشجون لاعهد للناس بها ...
هل جعلت من هذا الزمان الذي وقعت عليه يد عنايتها خزانة
للفكر الخصب ومسرحاً للفن العجيب ... إن يكن هذا فعين
المقادير الساهرة لم تجمععه عبثاً ولم تؤلفه في غير تدبر ولا قصد ...
وإنما مهدت به اظهور بطل عرفته هي ولما يعرفه الناس واختارته
هي ولما يحيط الناس بأمره خيراً — اختارته من بين صفوف
البشر المتراسة لا تميزه سمّة ولا ترتفع به علامة ليكون الإعجاز
معه خارقاً والعبقريّة كاملة — ولتكون ضربة المقادير في مكانها
فتوقظ الهاجعين وتحيا أمل البائسين رجل من العامة لا هو في
الغير ولا في النفير تقع عليه عين المقادير ليلبلغ رسالة ما عهد
الناس له فيها سبقاً ولا أدرك واحد أن له بها صلة — رجل يقع
عليه الاختيار فما أن يوحى إليه بالسر الرهيب حتى تنقطع صلته

بماضيه وإذا سنوات الخمول التي مرت به كأنما هي سنوات اختار
وتأهب وإعداد لتحمل الرسالة القدسية التي أوحى اليه بها الأقدار
أجل ما كادت اللحظات التي اختارتها الأقدار للوحي تمر حتى هب
كالعلاق يقطع الأرض قطعاً مرسل القبول إرسالاً في غير
تعمل ولا مداورة حتى ملأ الأسماع وبهر العقول بحسن منطقته
وبراعة استهلاله وجمال تراكيبه وبديع تواليقه — ترى أكانت
معجزة شكسبير من جنس ما اعتاده قومه وألفوه من ضروب
القول فلما أن جاءت آيته لقفت ما صنعوا وتركتهم حيارى
لا يدرون ما يصنعون لقد اعتدنا أن نرى الملهم يحاج قومه بلسانهم
ويصارعهم في ميدانهم لتكون حجته عليهم أقوى ومعجزته في
نفوسهم أوقع فإذا كانت عدة قومه البلاغة والفصاحة آتهم
بالمعجز من القول وتحداهم أن يأتوا بمثله فإن عجزوا فقد حقت
عليهم كلمته وباعوا بخسران مبين وإن كانت عدة قومه السحر أتاها
بالمخرس من فنونه حتى إذا عجزوا عن مجاراته خروا لعظمته
عاجزين — فأى كانت آية قوم شكسبير وأى كان زمانه ... ؟

أدرك شكسبير نور الحياة على عهد الملكة إليصابات في
النصف الأخير من القرن السادس عشر — وإذا قلنا عهد

اليصابات في انجلترا فقد ذكرنا عهداً من العهود الذهبية التي مرت
ببلاد الإنجليز فقد جاء عهد اليصابات مؤذناً بانتهاى تلك المعارك
الدموية التي غمرت داخلية البلاد ككأثر لتنافس بيتى الملك فيها
وكأثر الحروب الطويلة المعروفة بحرب الوردتين .

وكان الناس على هذا العهد يشعرون بانفساح الآمال واتساع
الآفاق فكانت تشملهم غبطة فياضة وهدوء نفسانى إذ تفتحت
أمام أعينهم عوالم جديدة كأثر للفتوح والاستكشافات وهدأت
ثأرتهم واطمأنت نفوسهم إلى قيام حكومة مركزية قوية جمعت
زمام السلطة فى يدها وقضت على حرب المشاحنات بين الأسر
وتميز العصر الى كل هذا بطابع من التيسير والتسامح الدينى كأثر
لاستقلال الكنيسة الانجليزية عن أختها فى روما مما مهد لتقوية
الشعور الوطنى الذى انتهى بالانتصار الحاسم على الاسبان فى
حرب الارمادة وقد هيأت الحياة الجديدة الفرصة للقضاء على كثير
من العادات والتقاليد القديمة التى كانت تحول بين كثير من الناس
وبين السمو إلى درجات الرفعة فمهد هذا الإلغاء لكثير من
القراصنة الذين أدوا خدمات فى البحار أن يصلوا الى مراتب
اللوردية وساعد افتتاح البحار ورواج التجارة فى الداخل والخارج

العالم كله يستعر فيه أتون من الثورة وانقلاب الاوضاع ولكن
الناس مع ذلك كانوا كأنما قد شملتهم موجة من السحر فجعلتهم
يسيرون على الجمد والارض تמיד من تحت أقدامهم .

✕ ولم تكن الملكية اليصابات أقل اتصالا بشعبها فقد كانت
معبودته والموحية اليه والمشجعة لاعماله وكان قصرها مركزاً
لحركة اجتماعية غلبة لها سحرها وألوانها وهى فى كل حين
تغدق على من ينال رضاها من الإقطاعات والثروة ما يرتفع به
إلى مقام السادة فكان الكل يلتف حولها طامعاً فى نداها مؤملاً
فى عطائها وكانت فى قصورها الخمس تشرف على التيمس فكأنما
تشرف على عرق الحياة النابض فى مملكته فقد كان التيمس أبداً
فى حركة دائبة مراكب صاعدة ومراكب منحدرة وسفن ذاهبة
وسفن آيية تلك تحمل الرجال إلى أمريكا وبلدان الدنيا الجديدة
وتيك تعود من هناك محملة بالذخائر والنفائس ومحملة بالطرف
والاخبار والنوادر والحكايات عن العالم المجهول وعن الدنيا
الباهرة فكانت لندن وكانت شيطان التيمس كأنها خلية تعج ليل
نهار بالصادرين والواردين وتعج ليل نهار بالاحاديث عن الدنيا
التي تفتحت أبوابها بعضاً سحرية فتدفقت من وراءها الثروات

وانهالت الكنوز والنفائس وأضحت لندن في هذا العصر الذهبي
مهبطاً لمتاجر الشرق والغرب ترد إليها من أفريقية ومن بلاد الشرق
الأوسط ومن لبنان ومن الهند ومن الشرق الأقصى وأضحت
بين يوم وليلة مركز العالم القديم والجديد ومحط رحاله -- وتسامع
الناس بأخبار النهر وأقاصيصه وتناقلت الأقواه حكاياته ومن أميره
وتفتحت لأصواته الأذان الشاعرة فسجلت منها ما وعته لذاكرة
ودارت كؤوسه وأنغامه على الأذان فشرب الناس منها حتى ثملوا
فسقوا غيرهم وهكذا أضحي للبحارة حديث وأضحى لهم قصص
وأضحت لهم سير دبجتها أقلام خالدة تخلدت مع الزمن .

لقد خرجت الجزائر البريطانية من عزلتها في هذا العصر
البهيج ووسعت آفاقها وبني لها أبنائها المجاهدون في البحار
أمبراطورية عظيمة بنوها بالقرصنة والتجارة -- وكما دان الانجليز
لهذا العصر بأمبراطوريتهم فقد دانوا له باللغة والادب إذ لولا
ما ساهم به الأمراء ورجال القصر من عطف ورعاية للغة والادب
ما ارتفع لها ذكر ولا حفل بهما إنسان ، وقصة اللغة والادب
قصة عجيبة فإن آثار النهضة التي شملت إيطاليا وحفزت أمراءها
وسراتها على رعاية الفنون والآداب قد انتقلت عدواها الى كافة

اوربا والى انجلترا خاصة فجرى سراتها وأمرؤها على الخطوط
التي رسمها لهم قرناؤهم في ايطاليا - وساعدهم الثراء الذي تفتحت
أبوابه من كل جانب على الاغداق على الأدباء والشعراء وأهل
الفن من الموسيقيين والممثلين - وكان العادة التي يسير عليها أهل
الزمان هي أن تحفل دور الامراء وأصحاب الثراء برجال الفنون
والآداب ويتنافس هؤلاء في الفوز برضى سيدهم وراعيهم فيهدون
اليه نفقات أفلامهم ومنتجات عقولهم وفيوضات خيالهم وكان
السيد أو الراعي يشجع الجميع ويهدي لمن يفوز برضاه المال الذي
يعينه على مواصلة الانتاج - وقد كان لهذه الحركة أثر بارز في
تشجيع الفنون والآداب والسمو بها الى مراتب من القوة
والجمال لا عهد للناس بها - ورثت انجلترا هذا التراث الصالح من
اوربا فتعهدته ملكتها بالرعاية بقدر وشجعت الآداب والفنون
بما كانت تقيمه في قصورها من حفلات وبما كانت تعقده بين
الأدباء والمؤلفين من مسابقات يتنافسون فيها على الفوز برضى
الملكة ولا حراز قصب السبق في الروايات التي تمثل في الحفلات
السنية العامة - وكان الامراء والسراة من ناحية أخرى ينافسون
قصور الملك في ابهتها فكانوا يجمعون في دورهم وقصورهم حاشيات

مختلفة من رجال الادب والفن ويغدقون عليهم المال ليقدّموا لهم
عصارة أذهانهم في صورة قصص وروايات تمثيلية يمثلونها في
مسارحهم الخاصة ويسمعونها لخاصتهم في سهراتهم ومنتدياتهم

اخصب الادب واخصب الفن وكثر عشاقه ورواده
وكثر المنتمون الى حظيرته فكان لا بد لهم من أمكنة يأوون اليها
يعدون فيها رواياتهم ويستعدون فيها للعمل وللتمثيل فكان ان
أنشئت المسارح في لندن في النصف الثاني من حكم اليزابث
وعاشت المسارح في كنف الملكة على انها دور اعداد لما سيمثل
في البلاط وبذلك استطاعت أن تحيا على الرغم من تضيق اصحاب
المذهب البسيورتاني Puritans الذين كانوا يضيقون ذرعا بها
واضحت الروايات التي تعد للبلاط تعرض على العامة في هذه
المسارح على انها تجاريب واعداد للاخراج النهائى وكان ذلك
ميسورا إذ ان المسارح كانت تفتح أبوابها العامة في ضوء النهار
وكان التمثيل يجرى في الضوء والهواء بينما كانت حفلات القصور
وحفلات البلاط لا تبدأ الا في الليل . وبذلك استطاع الممثلون
أن يعرضوا بضاعتهم في قصر الملكة دون أن تتحمل الملكة عبء
تمويلهم فقد كانت الحفلات النهارية تقوم بما يلزمهم من مصروفات
وتسد حاجاتهم من المال

كانت لندن على هذا العهد تضج أروقتها وقصورها بالفن والأدب وكانت الروايات التمثيلية تستهوى أفئدة العامة وتخلب لهم وكانت عناية الناس بالطرب والموسيقى والمسرح بالغة أشدها حتى أن الأقيسة والحانات وكل مكان في لندن كان غاصاً بالموسيقين والممثلين يتبعون المارة كظلمهم ولا يتركون زائراً أو طارقاً إلا استوقفوه ودقوا له موسيقاهم ليهيئوا له رقصة أو رقصات — وفي إمكاننا أن نقول أن هذا العصر قد شهد تطوراً في الأدب وتطوراً في الموسيقى وتطوراً في الفن بل إن هذا التطور قد قفز بالفن والأدب والموسيقى قفزات طويلة قطع بها أشواطاً نحو المجد ونحو الغاية ونستطيع القول أن هذا الضرب من الهواية لم يكن قاصراً على السادة ولا على الأمراء بل امتد ظله إلى العامة وإلى كل فرد في الأمة حتى أصبحت الموسيقى وأصبح المسرح هوية كل إنسان وموضع عناية كل فرد فلا عجب بعد ذلك أن تضفي الروح القومية على هذه الفنون مظاهر شعبية جعلتها قريبة إلى كل قلب حبيبة إلى كل فرد فإذا صح أن الأدب قد أشرق ضوءه وأن الموسيقى قد ارتفع صداها ورقت ألحانها كأثر للنهضة التي سادت إيطاليا وغزت أوروبا وانجلترا بعد ذلك فكيف أشرق

المسرح وكيف ارتفع ظله حتى أضحى في عصر اليزابيث مؤسسة اجتماعية تقوم بخدمات عامة تعبر عن رأى مجتمعات لندن وتصدر عما يدور فيها من أحاديث وأخبار بل كيف استطاع المسرح أن يجعل من نفسه قطب الرحى في الحياة العامة يوجهها وينقدها ويفعل ما تفعله الصحف في هذه الأيام بل وأكثر فقد زاد على كونه منبراً حراً للأفكار أن غذى الناس بالقصص والحكايات المثيرة والروايات العاطفية بحيث أضحى الناس في ذلك الحين يجدون فيه كل تسلية مما نجد نحن اليوم في المجلات والروايات البوليسية والغرامية التي تملأ الأسواق.

نشأت التمثيلية أول ما نشأت في إنجلترا في أحضان الكنيسة في مطالع القرن الثالث عشر وكان الغرض منها عرض قصص الإنجيل وشخصه على العامة في أسلوب يستهويهم ويرسخ في أذهانهم فكانت تمثل لهم شخصيات القديسين وأعمالهم في صورة جذابة وكان القسس في الكنائس يقومون بهذا العرض كما كانوا يعدون التمثيلية معتمدين على نصوص الإنجيل وقصص القديسين وكان العرض يمتد في بعض الأحيان أسبوعاً وأسبوعين وكان هذا النوع من التمثيلية يسمى Miracle Plays (روايات المعجزات)

وتطور القصص وامتد وبعد أن كان قاصراً على نصوص الإنجيل وقصص القديسين أصبح يعالج مسائل أخلاقية الغرض منها تثقيف العامة وتزويدهم بالأخلاق الفاضلة فكانوا يجسمون الفضيلة ويجعلون منها شخصاً يتكلم فسميت هذه الروايات (بالروايات الأخلاقية) Moral Plays وكان شخوصها الجمال والقوة والعلم والصدقة والمحبة ، وتطورت هذه التمثيليات رويداً رويداً إرضاء لحاجة المستمعين وجذباً لاهتمامهم فأدخل على الروايات بعض مناظر مسلية مما يشير الضحك وتسلي النظارة — كما أدخل على موضوعاتها شيئاً من التاريخ وشخصياته وبذلك تطورت القصة التمثيلية من أمور دينية بحثة إلى شؤون تاريخية وفكاهية وأصبح هذا النوع من الروايات محبوباً لدى الجماهير يتسابقون لرؤيته وما أن أهل القرن السادس عشر حتى كانت هذه الروايات المختلفة قد تطورت وأصبحت تسمى بالروايات التاريخية — ومن هذين الضربين الفكاهي والتاريخي نشأت المسرحية الحديثة فقد تطورت الفكاهة وانتهت إلى الملهاة Comedy كما تطورت قصة التاريخ وانتهت إلى المأساة Tragedy

ولا شك ان عوامل هذا التطور كامنة في الشعب الانجليزي

نفسه فهو الذى شجع على هذا النجاح وهو الذى عجل بهذا النمو
المطرد - ولا تتسع صفحات هذا الكتيب لاسهباب فى كيف
تطورت المسرحية وخرجت من الكنيسة الى ايدى الشعب فهذا
أمر يحتاج ال بحث طويل لايعنيننا منه فى هذا المقام إلا أن نوضح
أن عصر اليزابث أو العصر الذى سبق ظهور شكسبير كان عصر
اهتمام بالفنون والآداب وكان عصر عنايته بالمسرح ليست وليدة
ظهور شكسبير ولكنها ترجع إلى أجيال طويلة قبله - وما دمننا قد
رسمنا صورة لهذا العصر وما يعجز فى جنباته من أدب وموسيقى وفن
وما دمننا قد صورنا الحياة فيه وما يندفع فى تيارها الجارف من نهيرات
وروافد كثيرة تأتى من هنا وهناك فتملأ النهر الجارى بالحياة وتجدد
فيه القوة وتدفع اليه بمقومات الفتوة - ما دمننا قدمنا هذه الناحية
فلا ريب أن هذا الفيضان الفكرى والاجتماعى وهذه الثورة التى
قامت فقلبت كل وضع وجددت كل أمر خليقة ان تسجل وان
تمجد ولكن بأى لسان وبأية وسيلة - كان ضروريا أن تجد هذه
الافكار الجياشة وهذه القصص المتناثرة وهاتيك الصور والطرف
التى تأتى وتذهب من يدونها ومن يقرع بها آذان العامة ويهز بها
مشاعر الخاصة ويبقيها على الدهر خالدة ، باللسان الذى يفهمه

الشعب وبالوسيلة التي تستهويهم وتملك عليهم قلوبهم - أما اللسان فهو اللغة الانجليزية وأما الوسيلة فهي المسرح فقد كان المسرح في هذه الايام سلوى الخاصة والعامة وموضع مباهاتهم ورضاهم - ولذلك كان طبعيا ان تستجيب الاقدار لهذه الحاجات الملحة فتبعث رسالتها الى هذا الجيل على لسان شاعر وكاتب مسرحي ولتكون معجزته من جنس ما يفهمه قومه ولتكون كلمته فيهم هي العليا - وقد كان ان ظهر فجأة في لندن يافع في سن الثامنة والعشرين لا يعرفه احد ولا عهد له بالأدب ولا سبق له في مداولة الشعر ولا هو من رجال المسرح أو رجال القصور بل يافع ريفي قدم الى لندن كما يقدم اليها الآلاف كل حين طلبا للعمل وسعيا وراء الثروة والجاه لا مال له ولا نسب فاندمج في أسرة المسرح وما عثم ان اصبحت كل شيء فيها وما لبث أن ارتفع صوته وعلا نجمه وفاضت حكمته وورى ذكاؤه ولمعت عبقريته فانطفأ كل نور إلا نوره وخبث كل شعلة إلا شعلته واضحى بين يوم وليلة بطلا فذا وشاعرا ضخما ومسرحيا منتجا تتقطع دون مباراته الاعناق ذلك هو وليم شكسبير الذي تركناه في قرينه استرانفورد على نهر الآفون يعالج قساوة الايام ووحشة الزمان ويعد نفسه للرحيل الى لندن لعل

الله يفتح له بابا يستطيع منه ان يدخل على أهله سرورا انقضى
عهده ويوفر لهم طعاما تعبوا في الحصول عليه

أقبل ولیم على لندن وفي النفس ما فيها من مرارة الأيام وفي
الفؤاد ما فيه من لوعة الحرمان لفراق مرابع الصبا ومواطن
الطفولة أقبل على لندن في زهرة الشباب وعنفوان الفتوة
ففي مجرباً لا غراً ولا حدثاً أقبل يحدوه الأمل ويحفزه الرجاء
مؤمناً بنفسه واثقاً في جهاده ليلو حياة جديدة لعل فيها عودة
النعم ولعل فيها الجاه والثروة — دخل لندن لا متطلعا ولا ساخراً
ولا عابثاً بل مكافحاً يريد العمل والكسب ، دخلها في سن العشرين
وأمضى في ربوعها ثمانى سنوات يعمل ويكد ليصل إلى شيء
ولكن فیم أمضى هذه السنوات ؟ وفي أى عمل قضائها ؟ هذا ما لم
يصل إلى علم أحد لأن نور الشهرة لم يكن بعد قد أشرق عليه ،
ولأن فجر العبقرية لم يكن بعد انبثق ضياؤه وسواء علينا
أأمضى هذا الشاب هذه السنوات في أعمال صغيرة يكتسب منها
القوت أو أمضاها في الدراسة والتأمل فيما حوله من دنيا جديدة
متفرعة مناحي النشاط ينهل منها لنفسه معرفة ويعي منها لحسه
تجارب سواء علينا أأمسك الفتى بأزمة الخيول للساداة عند

دخولهم إلى المسارح ، أو لعب أدوار ثانوية في بعض الروايات ؛
أو اشتغل أجيراً لأصحاب المسارح ، يقضى لهم حاجاتهم فكل
هاتيك تفاصيل لا تخرج عن الحدس والتخمين ، ولا ترتفع قط
إلى مرتبة اليقين ، فما عرف أحد ولیم في هذه السنين ، ولا كان
ولیم نفسه ممن يكتبون يوميات أو مذكرات لا ، ولم تكن له
رسائل البتة ، وقد قامت جماعات وجماعات بالبحث والاستقصاء
والدراسة لعلها تجد إشارة أو عبارة في كتيب يشير إلى تلك الأيام
فما اهتمت إلى شيء يحسن السكوت عليه ، على أن هذا الظلام الدامس
ما لبث أن انبلج عن صبح اليقين ، فإن ولیم المغمور في مجتمعات
لندن الحافلة ، ولیم الذي قضى ثمان سنوات من زهرة العمر لم
يسمع به مخلوق ، قد طفا فجأة ، وارتفع وظل يرتفع ، حتى سما
على كل إسم قبله ، وأصبح اسمه يذكر مقروناً بالاحترام والتبجيل ،
أجل بعد هذه السنوات الخاوية ، طفر اسم ولیم شكسبير وظهر
وتحدث عنه الكتاب — صحيح أننا لا نستطيع أن ندلى بشيء عما
حدث لولیم أو عما صادفه في خطواته الأولى ككتاب مسرحي ،
ولكن من الحق علينا لشكسبير أن نوفيّه حقه ، فهو لم يظهر على
المسرح لأن الأرض لم يكن فيها مبارز غيره ، ولا علا نجمه

وبعد صيته، لأن مسارح لندن قد عقلت، فلم تجد كاتباً ولا شاعراً
يغذيها بكتابات ورواياته، بل الحق أن شكسبير ظهر ولندن تموج
بالكتاب والمولفين، وتذخر بالشعراء والقصاص، وكان فيهم
النوابغ وأصحاب الرأي من خريجي الجامعات University ولكنه
مع ذلك، بزهم واندفع إلى طريق المجد بخطى ثابتة، وملاً الأرض
نوراً جلا دنيا الفن تجلية عجيبة، بهرت الناس، وغشت على أبصار
منافسيه وتركتهم يتخبطون، حيارى بين البقاء في هذا المضمار،
أو مجانبته إلى غيره.



الفصل الثاني

ضحى العبقرية

إن القدر الذى هياً لشكسبير منتبأ كأحسن ما يكون تكويناً للعبقرية ، وإنماء للإحساس بالجمال ، وتفتيقاً للذهن على شتى التجاريب، كان لا شك موجه إلى حيث تتوفر لهذه العبقرية عوامل الاكتمال ، ولهذا الإحساس عوامل النضوج ، وهذه التجاريب المزيد والاتساع ، حتى يتيسر لها جميعاً سبيل الإنتاج المشمر فى عاصمة المملكة الانجليزية .

ولا نستطيع أن نعرف على أى وجه من الدقة ، متى وكيف هبط شكسبير لندن ، وما يعنينا أن نكشف عن السنوات التى سبقت ائتلاق مجد الشاعر ، واستوائه على عرش الأدب والشعر ، وما يهمنا أن نعرف كيف قضى شكسبير تلك السنين ، وفى أى مهنة

عمل، وإنما الذى يعنيننا حقاً، هو أن شكسبير أصاب فيها استعداداً كاملاً موفوراً للدور الهام الذى قدر له أن يلعبه على مسرح الأدب والحياة فيما تلا هذه السنين، وأنه لاشك اتصل بالأدب المسرحى ودنيا المسرح، اتصالاً هياً له هذا الاستعداد، وإلا فكيف نفسر إشراق المجد، فى غير حساب من الوقت، أو طول محاولة وتجريب...

× على أن حياة الشاعر فى لندن، لم تكن لتخلو فى التأثير بعوامل هى التى هيأت للعبقرية أسباب الظهور، وتعهدها بالنماء، ولعل أول هذه العوامل جميعاً هى المدينة نفسها لندن، وما أوحته إلى نفس الشاعر، من صور وأحاسيس، كما كان للنهضة المسرحية التى حمل لواءها الكتاب من قبل شكسبير، وقبل أن يبرز نجمه أثرها الفعال فى تكوين فن الشاعر، أضف إلى هذين ما وفق إليه الشاعر من صداقة ذوى الجاه والنفوذ، من طبقة النبلاء، مما مهد له سبل النجاح فى اطمئنان ودعة، ورد عنه كيد الكائدين، فانطلق فنه حراً، فى غير قلق أو اضطراب.

هذه العوامل الثلاثة مجتمعة، تألفت على أن تهىء للعبقرية الكامنة سبل الظهور، على أن التفاعل بينها وبين الشاعر كان تاماً

باعثا على الوفرة والخصب ، معينا على الإنتاج الناجح الموفق
وإننا لندرجو أن نستقصى فيما يلي أثر هذه العوامل في نفس
الشاعر وفي فنه .

× لندن

لم تكن لندن إلا كما كان غيرها من بلاد أوروبا ، أو بلاد العالم
في العصور الوسطى ، مدينة نشأت من قرية لم يخططها نظام ، ولم
يرسمها تصميم مهندس ، يخيل إليك أنها كغيرها من كائنات الطبيعة
شيء استقر ونما ، في غير اتجاه مدبر ، ولا خطة مرسومة ، كأغصان
الشجرة تلتف وتتدلى في غير قصد أو غاية ، كذلك كانت المدينة
بيوتاً تتلاصق وتتراكم في بعض الأحياء حتى تغص بها وتختنق ،
وتتناثر وتتباعد في أحياء أخرى ، حتى لا يكاد يحس بعضها وجود
بعض ، والنهر « التيميز » يجري لمستقره قبيحاً في بعض نواحيه ،
متأثراً بما يحيط بشطيه من صنوف الأبنية والناس ، جميلاً إذا ما
انطلق من آسار الناس ، وضرب في أحضان الطبيعة الجميلة خلعت
من كل شيء إلا قصور السادة والنبلاء ، وهم أبداً وفي كل مكان
يعزلون الناس ، ويتخذون لأنفسهم القصور في المكان الضاحي

الجميل، بعيداً عن ضجة الناس وعن صخبهم، وفراراً من أمراضهم
وأقذارهم كأنما هم سكان عالم آخر لا يمت إلى سكان هذه الأرض
بسبب أو تربطه بهم وشائج قرى

وإن هذا القبح الذى كانت تراه العين فى لندن، حيث تعيش
الكثرة من الشعب فى أحيائها الغاصة المكتظة، كان له أثره من
أمراض شائعة، وحرائق مدمرة، يذهب وقوداً لها الألوف من
الناس والغالى من المناع، وطاعون يصيب القوم من حين إلى
حين، حتى ليعجزهم عن جمل موتاهم وموارثهم التراب، فإذا خلصت
المدينة من هذه الحرائق أو تلك الأمراض. بدت كالناقة من
مرض طويل، فى وجهها شحوب، وفى أعضائه خور، فإذا طال
بها الأمد وحالفتها السلامة، عادت إلى ما كانت عليه، من ازدحام
وعمران، وضرب أهلوها فى مناكب الأرض من جديد، يبتغون
العيش ويحلبون الأرزاق.

تلك دنيا لندن فى القرون الوسطى، ومبدأ عصر النهضة، وهى
دنيا الناس فى كل مدينة أخرى فى أى ناحية من نواحي العالم،
ما أكثر ما تصيبهم الكوارث، لا يعرفون لها سبباً إلا ما تتناقله
عقولهم الساذجة من أسباب سحرية هى وليدة الأوهام، ولا يستطيعون

لها دفعا إلا بما ألفوه من طب بدائي يذهب في تشخيص الأمراض
مذهبها سخيفاً ، ويتخذ لها من أسباب العلاج ما هو أدهى وما
كان فيه المزيد من الداء والاستفحال في الشر .

على أن ضحايا المرض والحريق لم يكونوا إلا أولئك الذين
حرموا أسباب الوقاية الطبيعية ، من غذاء جيد ، ومسكن نظيف ،
وشراب خلص من الأقدار ، من الفقراء وأصحاب الحرف من
عامّة الشعب .

لم تكن لندن إلا شيئاً من هذا ، شوارع تضيق وتلتوى ،
وبيوتها ملأتها الأقدار ، وناسا كثيرون يغدون ويروحون وهميتهم ،
الطبيعة أجساماً صحيحة ، وإن كان الداء يتربص لهم في كل مكان ،
وفي كل لقمة ، والموت من وراء ذلك يستقضى حسابه ، ويضرب
الضربة الدامية يخر لها الألف صرعى .

على أن هذه الأمراض القتالة والخطر الكامن ، لم يكونوا
ليحولوا بين الناس والتمتع بالحياة في نهم ونشوة ، وما كان أحراهم
بذلك والعصر كله ملهم ، والعالم يتكشف عن دنيا جديدة ، وعوالم
جديدة ، وأجناس جديدة ، وفرص جديدة ، ولقد كان العصر
عصر اليزابث ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وهذه

انجلترا ، تستقر بعد أن مزقت أوصالها حروب أهلية موهنة ،
ويطمئن الناس فيها إلى ملك ثابت الأركان ، موطن البنيان ، وها
هم يدلون دلوهم ، ويأخذون بنصيبهم في تيارات الحياة الجديدة ،
تقودهم إلى المجد ملكة جاءت على طراز فريد بين الملكات في
عصر كان فريداً بين الأعصر .

كانت لندن القلب النابض بألوان النشاط التي حفل بها هذا
العصر ، والبؤرة التي تركزت فيها كافة الآحاسيس الجديدة ، فهي
العاصمة وهي مقر السلطان ، ومن مينائها الطبيعي على نهر التيميز ،
تروح وتغدو السفائن ، وقصور اليزابث كلها تشرف على النهر من
أما كن متعددة ، وهي تعبر النهر رائحة غادية ، في مواكب يحفها
الجلال ، ومراكب تزرى بمراكب الأولين وتوحي بما أوحى
به إلى شكسبير حين وصف مراكب كليوباترة ملكة مصر في
العهد القديم ، وهي تبارك السفن في غدوها ورواحها ، وتنعم على
قوادها وبحارتها باللقاب الشرف ، وإلى خزائنها يتسرب جزء هائل
مما حملته السفن من أسلاب الذهب والفضة فتفيض بها خزائن
الدولة ، وتمتلئ بها عيون الناس ، وينفتح إدراكهم على عجائب
الشرق وتحفه وعطوره ، فيرون عجباً ويسمعون ما هو أعجب من

القصص الذى يلقى عليهم البحارة عن أراض بعيدة وبلاد قسوة
فى أطراف الارض .

فلا عجب إن كان أهل لندن أول من استشير فى نفوسهم روح
التقدير للحياة والحرص عليها والإفادة منها فى كل دقيقة ، كانت
الحياة زاخرة فاتنة فلا غرابة أن أقدموا على قطوفها الدانية ، فى
إقبال وفى نشوة ، ولا غرابة أن عبوا من بحرها الطامى عباً ونهلوا
نهماً ، فقد كان كل شئ بهيجا يغرى بالاقدام ، مستساغاً
يوحى بالإقبال .

وقد كان لهذا الإقبال نحو الحياة والتوفر عليها أثره الظاهر ،
بما تحسه من تدفق النشاط فى كل ناحية من نواحي العيش والتفكير
وما تلمسه حين ينصرف القوم إلى الترفيه عن النفس بالتسلية
والترويح من تلذذ واستمتاع .

كانت الملاهى ودور التسلية مرتاداً للألوف من الناس .
وكانت الأزقة الضيقة تعج بمشارب الخمر ، يلجها الشباب والكهول
يشربون فلا يشملون ، ولكنهم يطربون والموسيقى تشف أسماع
الشاربين وتدفعهم إلى الرقص وإلى الغناء ، وقل أن خلا مشرب
من موسيقى ، أو خلا مكان من الغناء والرقص ، حتى بلغ الأمر

ببعض المتبرمين أن ضاقت نفوسهم بهذا المرح الذي لا يتقيد بشيء
فصبوا اللعنة على رأس الناس ووصموا العصر بالفجور والفسوق .

والى جانب المشارب والمراقص كان للشعب ملاحيه مما يشبه
ميادين الرياضة فى وقتنا هذا ، وكان الإقبال عليهما موفوراً ،
يتسارع الناس فيه إلى شهود صراع الدببة وقتال الديكة ، إطاعة
لغريزة ثابتة فى نفس الإنسان هى غريزة القتال وما تثبغيه من
تنفيس فى هذه المشاهد .

ولم يكن الشعب وحده هو الذى يقبل على هذه الملاحى بل
كان السادة والنبلاء على رأس القوم يشهدون هذه الاحتفالات
ويكسبون بها بما يلبسون من جميل الثياب وفاخر الحلل بريقا كان
لاشك واجداً أثره فى نفوس العامة والدهماء مما هو معروف عنهم
من التطلع والإعجاب بأولئك الذين علوا عليهم علواً كبيراً ،
ولاشك أن شكسبير فى شبابه وفتوته قد بهرته هذه المناظر المتألقة
فاجتذبت له حيناً فأحاط لندن بمكنوناتها ، وامتلات نفسه الفتية
الحساسة بصورها .

على أن هذه المفاتن وإن كانت قد استهوت نفس الشاعر كما
استهوت نفوس الشباب من أمثاله من مختلف طبقات الشعب ،

فقد ثبت أنه كان يطوف بالحنانات في قصد واعتدال، وأنه كان يشارك أهل لندن في هوهم ومتاعهم، لم تغرقه لجتها، ولم تأسره بمفاسدها، بل بقي منها نجياً، يراها ويحسها، ويصيب منها قدراً، في غير إسراف أو إسفاف، وهل تريد الشاعر أن يباعد بينه وبين الناس ويحيا في برج قصي، ومن أين له إذن ذلك الاتصال الذي يوقفه على خفايا النفس حين تتكشف في معترك الحياة أو مبادئها؛ ومن أين له إذا لم يصل بينه وبين الناس أن تعج تمثيلياته بالمناظر التي تنبعث من صميم الحياة وتستمد القوة والخلود من تصويرها المتقن للحياة الواقعية .

كان للندن إذن فضل غير منكور في تزويد الشاعر بالجمهور المترقب المتطلع، والروح الوثابة الناهضة، والحياة النشيطة الدافقة تجري في عروقه كما تجري في عروق الشعب، وتلون الحياة بألوان تبعث على الاستمتاع بالجمال وهل هناك ما كان أجمل من الفن، يبدو في مسرحيات خالدة على مسارح لندن في ذلك الحين، وهل كان أجمل من الشاعر تنفتح نفسه لكل هذه الحياة ثم يردّها على الناس جميلاً فيه قربى إلى نفوسهم، وفي نفوسهم أبدأ ظمأ إليه . هذا مبلغ تأثير شكسبير بالحياة في لندن من حيث تكوين

مزاجه النفسى ، ومن حيث توفر الفرص للإنتاج ، ولكن ثمت عاملاً ثانياً كان له أكبر الأثر فى إنماء فنه ، وبلوغه ما بلغ من كمال وجمال ، ذلك هو النهضة المسرحية التى كانت على أشدها قبيل عهد شكسبير بالإنتاج المسرحى وإلى سنين بعد ذلك ، وإنا نرجو أن نحمل فى لمحات خاطفة تأثر شكسبير بهذه النهضة وأن نبين أثرها الفعال فى كتابته وفنه .

نشأت الدراما الإنجليزية نشأة شبيهة بنشأة الدراما اليونانية فى أحضان الدين ، فكان هدفها تفسير آى الكتاب المقدس لقوم ما كانوا يستطيعون قراءة لغتهم الأصلية ، فضلاً عن لغة الكتاب المقدس وهى غريبة إلا على من أصاب خطأ غير قليل من تعلم اللغتين اليونانية واللاتينية — وظلت على هذا حيناً من الدهر ، ثم غلب عليها شيطان الفن ، فأغضبت الكنيسة وعقت الدين ، وانبعثت أداة خالصة لفن خالص ، فتخلت الكنيسة عنها وأقصتها عن أبوابها بعد أن انقلب الوليد الطيع مارداً جباراً ، وأصبح فتنة للناس يصرفهم عن أمور دينهم بما يقدمه لهم من لهُو .

ولم تعد الدراما بعد انفصالها من الكنيسة من يحميها إذا وجدت ملاذاً قوياً ، عند رجال الصناعة وأصحاب الحرف يحميها

من غضب الكنيسة ، ولا سيما إذا طاوعتها السلطة الزمنية فبطشت بها في غير رحمة ، وشردت رجالها ، أو زجرتهم في السجون ، وظلت تقضى حياة هي خليط من الضيق واليسر ، والقوة والضعف ، بقدر ما يتسع لها صدر الحكومة القائمة أو يضيق ، وحسب ما تغضى الكنيسة عنها النظر أو تنمر لها — على أنها بقيت رغم هذا كله حبيبة الى قلوب الناس ، إن ضاقت بها المسارح العامة ، سعوا اليها في المسارح المتنقلة ، وإن حيل بينها وبين هذه فلا بأس من أن تلتبس في بيوت السادة والنبلاء ، يظنون فرق الممثلين بالرعاية وينشرون عليهم سلطان الحماية وينسبونهم إلى بيوتهم إنجاء لهم من سطوة القانون .

ولسنا هنا في معرض الدراسة المستوفاة لما تقلبت فيه الدراما من سير إلى التقدم أو تردى إلى نكوص ، ولكن الذى نريد أن نقرره هو أن للدراما أسسا وحياة قائمة قبل عهد شكسبير وأن ميدانها لم يكن خاليا من فرسانه ، فقد كان ثمت كتاب معاميد في مسرحياتهم قوة ، وفي شعرهم روعة وجمال قبل أن تطلع عليها شمس الشعاع الجديد ، ولم تكن لندن خلواً من مسارحها ، ولم تكن دنيا المسرح خلواً من المسرحيات ، بل إن من بين أقران

شكسبير من كان يبرزه في وفرة الإنتاج و ضخامة المحصول الأدبي ،
وانبساط المدة التي قضاهما في خدمة المسرح والشعر ، أليس الكثير
من النقاد يذهب إلى اعتبار ابن جونسون هو دعامة المسرح
الإنجليزي لأن إنتاجه امتد ستاً وثلاثين سنة في حين أن شكسبير
لم يكتب للمسرح أو لم يعيش له إلا بين سنة ١٥٩٠ و سنة ١٦١٣
نعم كان المسرح مزدهراً عامراً ، والناس مقبلون عليه ، تقدم
إليهم ألوان مختلفة من المسرحيات لا يستطيع الناقد أن يميز فيها لونا
خالصاً ، أو يطلق عليها إسماً شاملاً ، بل كانت شتاتاً من الكوميديا
والتراجيديا ، أو مزاجاً بينهما ، فقد هم أصحاب المسارح وكتاب
المسرح إرضاء الجمهور بتقديم المسرحيات التي توافق هواه وتتمشى
مع رغباته ، والجمهور يذهب على أساس أنه ملاق هناك ما تشتهي
نفسه وما يتوقعه ، والمؤلف والممثل يصيبون رزقهم من دراهم
النظارة وجزاءهم الأدبي من بساتيمهم ودموعهم .

لقد بلغ عدد مسارح لندن قبيل شكسبير وفي أوائل عهده
ثمانية لمدينه لم يكن عدد سكانها يزيد على مائتي ألف ، وفي هذا
دليل بالغ على انتشار هذا النوع من الفن انتشاراً ما نحسب إلا
أن شكسبير قد لمسّه وتأثر به ، وهو يقضى تلك السنوات الأولى

من حياته في العاصمة يؤلف أو لا يؤلف ، ويعمل أو لا يعمل ، مما لا نستطيع له إثباتا أو تحقيقا ، وما لا يعنيننا أن نصرف جهداً في إثباته وتحقيقه مادام قد ظهر حين ظهر كاتباً مسرحياً مكتمل العدة مهياً له أسباب الظفر ، ولكن الذي يعنيننا حقاً هو كيف كشفت شمس شكسبير هذه الكواكب اللامعة في سماء المسرح الانجليزي وقد عاش المسرح على جهودهم سنوات ، ناعماً بتواليهم قانعا بها فيما يبدو ، غير متطلب عنها بدلاً أو متطلع إلى جديد . ترى أى نقص في الكتابة المسرحية استكماله شكسبير ، وأى ضعف سيره إلى قوة ؟؟ وما مبلغ ما أخذ من أعلام المسرح في ذلك الحين ... ؟؟

كان كتاب المسرح جاهزاً إن لم يكونوا كلهم من أولئك الذين أحسنوا الصلة بالآداب القديمة ، وأجادوا اليونانية واللاتينية قراءة وأدباً وتأثروا تأثراً مباشراً فعل في نفوسهم فعل السحر ، ودفعهم دفعاً إلى أن يرققوا رقى الفحول من كتاب التمثيلات اليونانية حتى جاءت مسرحياتهم إحياء لتلك وسيرا على غرارها ، على أنهم وإن كانوا قد أحسنوا الدرس وأجادوا الصنعة لم تتح لهم تلك النفحة القدسية التي تنفخ الشعر في نفوسهم فتجعل منهم أصحاب فن رفيع

لا أصحاب صنعة متقنة ، ولعل لفارق بينهم وبين شكسبير وقد أخذ عن القدامى ، كما أخذوا أو أخذ عنهم ما التمسوه عند القدامى إنك تلمس في كتاباتهم أثر المجهود وخشونة التقليد في حين يغيب عنك ذلك في شكسبير لانه أخذ كما يأخذ الكفاء من الكفاء والند من الند ويضفى على ما يؤخذ من صفاء نفسه ومعين شاعريته ما يحيلها خلقا جديداً .

على أن فهم الأمور على هذا النحو لم يكن بالمستطاع عند كتاب المسرح في ذلك الحين فقد كانت الكتابة وفقاً عليهم أليسوا الامناء على تراث الاقدمين والحفاظ على الذخيرة القدسية بما أصابوا من علم باليونانية واللاتينية وما هيأوا من سبيل الى الكتابة المسرحية بالشعر المرسل

— لقد كان يستعر الخلاف فيما بينهم على نواحي الكتابة المسرحية وما يجب أن يتوفر لها من صفات ومبلغ ما تسمو اليه بالقياس إلى المثل العليا في الكتابة عند اليونان كما كانوا يختلفون تقديرهم ما يقدم من مسرحيات وحظ كل منها من الاجادة أو قصورها عنها ، وقد كان يغيظهم أن ينفرد واحد منهم بالسلطان أو يعقد له لواء التفوق فهذا مارلوا (Marlowe) وهو واحد من نوابغ

الجامعة (University Wits) كما كانوا يسمون في ذلك الحين رفضت الجامعة أن تقر له بالزعامة ، وأن تعترف له بالسبق وهو إمام الصنعة ومحبوب الجماهير ، فكيف يكون موقفهم إذا طلع عليهم رجل جديد ليس ممن أصاب حظاً من العلم ، بل هو من طبقة الممثلين ، فحاول أن يبرزهم في ميدان هم فرسانه المصلون والمجلون ؟ ! ..

لم يكن شكسبير من طراز مارلو ، وناش ، وجرين وأضرابهم من كتاب المسرح الجامعيين الذين انقردوا في ميدان المسرح يكتبون والناس يتقبلون ، وعلى هذا فقد كان اقتحامه ميدان التأليف المسرحي أمراً ليس سهلاً ، ولا وقعه على نفوسهم مستطاباً ، ولا سيما إذا كان يعتمد إلى بعض الكتابات فيأخذها بالتهذيب والتنقيح ، فإذا هي تبدو كأنما خلقها خلقاً ، وابتدعها ابتداءً ، ولا شك أن هؤلاء الكتاب قد ملأ نفوسهم السخط على هذا المزاحم الجديد ، وغازظهم أن تصادف مسرحياته رواجاً حرمت منه مسرحياتهم ، وكان أول من ثار عليه وتأثر بالحقد وتوقع البلاء هو جرين ، فقد كان أكبرهم سناً ، وأقربهم إلى اعتزال الكتابة المسرحية بعد أن لم يجد فيها غناء لنفسه ولا دفعاً لعادية الفقر

كتب جرّين رسالة إلى أصحابه الكتاب يلفتهم للخطر الداهم ودفع بها إلى تشتل (Chettle) الناشر ولعله كان أكثر إحساساً بالشر منهم وأقربهم إلى إدراك أن شاعراً جديداً قد بزغ نجمه متأقماً لامعاً ، فحتم رسالته بعد وصم شكسبير بالسرققة والعدوان وتداخله فيما لم يهيا له بأن وجه النصيح إلى هؤلاء الكتاب مشيراً عليهم في سخرية لاذعة ، أن قد آن الأوان أن يحطموا أقلامهم وينزروا في عقر دورهم ، مادام حمى الفن قد استباحه هذا الدخيل وجال فيه جولات موفقه . . .

على أن شكسبير لم يكن براء مما رماه به جرّين ، فمن الثابت أنه لم يصب مثل حظ الآخرين من الآداب القديمة ، ولم تعج كتاباته بالصورة المنتزعة من الميثولوجيا اليونانية كما عجت كتاباتهم ، وأنه قد أباح لنفسه أن يفيد من كتاباتهم ، وأن يعيد كتابتها بحيث تتفق وحاجات المسرح ، ومن الواضح أيضاً أنه وضع أمام عينيه مسرحيات مارلو وتأثر بها إلى أبعد الحدود ، فريتشارد الثالث التي كتبها شكسبير تنطق في غير خفاء بتأثرها بتمبورلان التي كتبها مارلو ، وريتشارد الثاني لشكسبير ليست إلا صنواً لإدوارد الثاني من مسرحيات مارلو ، ولكن العجيب حقاً هو كيف استطاع

شكسبير وهو على هذا الحظ القليل من العلم أن يبرز أولئك الكتاب وقد أخذ عنهم وتناول كتاباتهم بالمراجعة ، وإنا لا نرى بأساً من أن نجيب على هذا إجابة عابرة وإن كان لنا عودة إليها في موضع آخر من الكتاب ، السر في هذا أن شكسبير كان أوسع مدى من هؤلاء وأنه هيء له أن يتقبل ما ينقل إليه وما يقرأه فلا يتختم به بل يتمثله فإذا هو في قرارة نفسه ، وإذا هو متصل هناك بما احتوته تلك النفس من آثار سابقة ، فإذا هو مرة أخرى إلى الإنتاج ، لم يكن صورة ممسوخة لما أخذ ، بل بدا كأنه من صنع يديه ومن فيض خياله ، إن ميزة الكاتب المسرحي ليست في ابتداع موضوعه ، وما أظن صور الحياة الإنسانية تتغير من عصر إلى عصر ، ولكن الذي يتغير هو الشكل الذي تصاغ فيه هذه الصور ، وتصويرها بحيث تزدهر بالحياة ، وبحيث تبدو كأنها في ذاتها هي هذه الحياة الدنيا بما وسعت من خير وشر ، لها اتساعها ، وفيها تنوعها ، وبين ثناياها عظاتها وعبرها ، وما أحسب أن أصحابنا الجامعيين كانوا على القدر الذي أصابه شكسبير من هذا ، وما هو بعلم الكتب ، وما هو بالذي يلقنه الأستاذ ويحصله التلميذ ولكنه نفحة الإلهام وإشراق العبقرية وقد كان

حظ شكسبير منهما هو حظ الموهوب المختار ، يقع على النفس المطمئنة فتقبله وتصرفه إلى خير ما يصرف له .

على أن الميدان وهؤلاء فرسانه ما لبث أن خلا بوفاة جرین بعد رسالته بقليل ، ومقتل مارلو بعده بسنة ، وموت كيد (Kid) سنة ١٥٩٤ ، وانصراف ناش وليلى وبيل إلى غير التأليف المسرحى بعد أن أيقنوا ألا فائدة ترجى من الاسترسال فيه

ولكن شكسبير لم يكن ليتيها له هذا الفوز على هؤلاء الكتاب وهو فى مبدأ عهده بالإنتاج ، دون أن يكون له من عطف أصحاب الجاه والسلطان ما يدرأ عنه عادية السوء وهو العامل الثالث الذى كان له مع العاملين السابقين أثر كبير فى شكسبير الرجل ، وشكسبير الشاعر ...

إن الإشارة الكافية التى تضمنها كتاب جرین إلى صحابته من مؤلفى المسرحيات ، واتهامه شكسبير بالسرقة والعدوان على ما ليس له ، وما لا يليق له أن يتعرض له ، استتبع اعتذاراً رقيقاً من الناشر « تشتل » حاول به أن يبرىء نفسه مما رمى به الشاعر ظلماً مؤكداً أنه لم ينشر الكتاب إلا جهلاً منه بشخصية شكسبير وأنه وقد ألقى إليه كلام من جماعة من النبلاء وما وقف عليه من

استقامة خلق الشاعر وما يمتاز به أسلوبه من جمال وقوة، لا يسعه إلا أن يعتذر إليه .

وما كان الناشر يعنيه أن يتقدم بهذا الاعتذار الى الشاعر الا تحت تأثير عاملين أشار اليهما ، هما اقتناعه أولاً بأن التهم التي كلفها جرير لفرن شكسبير ليست على شيء ، وثانياً ما أحدثه في نفسه تدخل جماعة من النبلاء ممن يقيم لرأيهم في الكتاب والكتابة وزناً كبيراً ، وما أكدوه له من أن شكسبير لم يكن بالرجل الذي يفتات على فتات غيره ، وان له من قوة شخصيته وقدرته مالا حاجة معه الى التماس المزيد من آثار الكتاب الآخرين . فمن هم هؤلاء السادة الذين لم يرضهم أن يصاب الشاعر في صميم ما يعتز به الأديب دون أن ينهضوا للدفاع عنه ، ورد عادية الكاتب الموتور عليه ؟ الثابت أن شكسبير كان يستمتع بصداقة ورعاية نفر من النبلاء ، وانه حرص على هذه الصداقة وعمل على انمائها ، لا بالملق يزجيه الى هؤلاء ، بل ببذل من خالص عبقريته كما يبدو في مسرحيات الفترة الأولى من انتاجه ، وان الذي يقرأ الكوميديات الأولى ليحس انعكاس هذه الصحبة في خيال الشاعر وتصويره ، بما تزخر به هذه الكوميديات من تصوير بارع زاخر بالشباب ، وما يعنى به الشباب من النبلاء من أمور الحياة ، وما يصرفون فيه وقتهم من

عمل أو هو ولا شك أن استجابة هؤلاء لهذا اللون من التصوير كان استجابة كاملة مصدرها التقدير والاعجاب ، ومبعثها ما كانوا يحسون في الشاعر الشاب من روح شابة فتية ، هي صورة لما يجري في عروقهم من دم ورغبة في الحياة وتوافر على الاستمتاع ونهوض بحق الروح والجسد في اعتدال وتناسق .

أن الشاعر الذي التهمت نفسه احساساً بما أحس به أبناء عصره ، ولا سيما أولئك الذين قارب السن بينه وبينهم من تقدير للجمال في كل شيء ، حمل اليهم من تصويره تمثلاً حياً من الجمال الذي ملأ نفسه وملاً الكون من حواليه ، لم يكن الحب وهو المحور الذي دارت حوله تلك الكوميديات والتراجيديات في مفتتح حياة الشاعر ليتمثل في نفس الشاعر وفي أنفس هؤلاء الشباب إلا رمزاً حياً لهذا الشعور بالجمال في كل ما تزخر به الحياة من صور شعورا يلهب نواحي النفس ويعينها على الاستمتاع في صحة وفي قوة وهو ان كان في أنفسهم شعورا فهو في عنق الشاعر دين واجب الاداء لنفسه ولفنه ولجمهوره .

فليس عجيباً إذن ، أن يتبادل شكسبير هؤلاء المعجبون به الحب والوفاء وبينه وبينهم هذه القربى في نواحي الفكر والشعور

وهو يرى فيهم جمالا يستوقف النظر ويستأهل التصوير فيخلد حياتهم في مسرحياته وهم يرون فيه اللسان الناطق بما يختلج في نفوسهم ، وما يضطرب به شعورهم . فليس عجيباً أن يكونوا جميعاً في الوقوف بينه وبين حساده وشائتيه ، وأن يكونوا جميعاً بحيث يشجعون الشاعر الشاب على المزيد من هذا السيل الحلو من الشعر الجميل ، ولكن جمهور الشاعر وإن كان يؤازره بالمساعدة لم يكن يستطيع أن يضمن للشاعر حياة متصلة بعيدة عن عادات الأيام ، ولم يكن له النفوذ الذي يدفعه دفعاً إلى تصدر الكتابة المسرحية والوصول إلى رضا أصحاب النفوذ من السادة النبلاء .

لا بد أن كان للشاعر - وقد كان له - ظهير قوى من عليه القوم ممن اجتمعت لهم أسباب السلطان والقربى إلى الملكة في عصر كانت هذه القربى هي كل شيء ، ولعل علاقته بواحد من هؤلاء النبلاء هو الأيرل أوف ساوثامبتون لعبت دوراً هاماً في حياة الشاعر ، وفي الاتجاه الذي سلكه وإليها ترجع طائفة كبيرة من الإشارات التي اضطردت في كتابته .

على أن هذه العلاقة بين رجلين باعدت بينهما فروق كثيرة كانت موضعاً للكثير من الأقاويل وإن كنا نستطيع أن نرى الآن

أنها لم تكن إلا ارتباطاً بين قلبين جمعت بينهما الوحدة في التفكير والتقارب في السن ، والتشابه في الذوق الفني .

لا نستطيع أن نقول أن شكسبير كان يتملق الأيرل أوف ساوثامبتون ، ولا نستطيع أن نقول أنه اتخذ الزلنى إلى النبلاء سييلاً إلى الظهور ، ولم نطن به الملق إذا هو أصفى الود شاباً ثبت أنه كان من خيرة النبلاء خلقاً وخلقاً ؟ ألم يكن شاعراً يحس الجمال فى كل شىء ؟ وهل كان ساوثامبتون إلا مثلاً أعلا لما يجب أن يكونه الشاب السيد النبيل ؟ وهل من عجب إذن أن نمت بيز الرجلين صداقة بعثها الإعجاب المتبادل بالرجولة المكتملة والنفس المهذبة من ناحية ، وبالفن الجميل الرفيع من ناحية أخرى ؟ كلا لا عجب أن فتن الشاعر بصاحبه النبيل فتوناً ، وأغدق عليه من المديح والتعجيد ما وسعته نفسه الجميلة ، أنه ليشبهه بيوم من أيام الصيف الجميلة ، لا بل يزيده عليه رقة واعتدالاً ، ولا عجب أن غنى محاسنه فى مقطوعاته الغنائية (Sonnets) وقد كانت كلها وقفاً على النبيل ، وإشادة بذكره ، وتخليداً لذكره ، وإظهاراً لصورة بارعة لمفاتيح الرجولة المهذبة ، والنفس التى رقت حواشيها النشأة المجيدة ...

إن الذين يتهمون العلاقة بين الشاعر والنيل يحنون على الود
ويرمون الشاعر بما هو براء منه ، لقد كان باب الملق إلى ربة التاج
مفتوحاً يستطيع أن يسلكه فيجنى منه خيراً كثيراً ، ولكن
شكسبير لم يجر مجرى الآخرين ، بل آثر أن يكون مقتصداً أشد
الاقتصاد فيما امتدح به الملكة ، في حين أنسال قلبه وتفتح قلبه
بالحب والاعجاب . يتوج به مفرق صاحبه النيل في وفرة تحسبها
أميل إلى الاسراف .

إن من الحق أن نتناول هذه العلاقة كعاطفة مخصصة أوحث
بها سجايا الشاب النيل وما فطرت عليه نفسه ، من حب للفض
وتقدير له ولأصحابه ، إعجاب خالص دفع الى حب خالص لا يبتغى
شيئاً من عرض الدنيا ، وإن كان قد أفاد شيئاً من حماية النيل فانما
أفاده جزاء وفاقاً لما قدم من حب ، وثننا لما أتج من آيات
فنية رائعة ،

على أن إعجاب الشاعر بصاحبه لم يكن كما أشرنا من قبل من
ذلك النوع الذي ينسى الشاعر ما بينه وبين النيل من فروق اجتماعية
في عصر كان للطبقات فيه حدود قائمة ومقام محفوظ ، وما كان
لشكسبير أن ينسى البون الشاسع الذي يضرب بينه وبين صاحبه

بسياج أمتنع من أن تجتازه عواطف الحب والود ، أأست تراه
يصور ذلك تصويراً هو آية البلاغة في قوله : --

لقد أحبت نجماً ثاقب النور ملتصع الضياء
وبدا لنفسى المتعطشة ان تحظى بالقرب منه
ولكن بينى وبينه مراحل لا أستطيع لها اجتيازاً
ودونه آفاق لا أقدر لها ورداً

فحسبى أن انعم بالاً يشعه من نور
دون أن تمتد يدي الى الامساك به

إن في هذه الإشارة بياناً صحيحاً وصورة حققة للعلاقة التي
كانت تربط بين الرجلين وعلى أساسها نستطيع أن نفهم ذلك
القصص الطويل الذى تزخر به المقطوعات الغنائية من تلك التى
تتناول ما كان بين الشاعر وصاحبه من خلاف حول غانية سمراء
كلف الشاعر بها حباً ، ثم سلبها منه صديقه النبيل مما سنفصله فى
مكان آخر من الكتاب .

ولكن كيف قدر لشكسبير أن يتصل بهذا النبيل الشاب
وبينهما هذه الفروق وأن يهيا الفرصة لتقوم بينهما هذه الصداقة
وأن يكون لها هذا الأثر فى شعره ؟

يظهر أن ساوثرهامبتون لم يكن أول نزيل استظل الشاعر بظله
وأنه جرياً على عادة الشعراء والأدباء قد التمس الحماية عن طريق
الاتصال بلورد سترانج وهو من المقربين إلى إسكس صفي الملكة
وخليلها ، والقابض على زمام الأمور حقبة طويلة من الزمن ،
ويظهر أن شكسبير عمل على رأس جماعة من الممثلين تنسب إلى
لورد سترانج كما كان المتبع المؤلف وأن هذه الجماعة قدمت إلى
إسكس فنالت حظوة لديه وأعجب بها إعجاباً دعاه إلى أن يهيء لها
أسباب القيام بسلسلة من الحفلات في بلاط الملكة فأصابت هناك
أيضاً من النجاح والتوفيق ما جلب إليها الأ نظار ولا سيما إلى
الشاعر الذي كانت مسرحياته مفخرة هذه الجماعة ، وأن رجلاً
كشكسبير عرك الحياة وخبرها ، لم يكن لينخفي عليه ما يستطيع
أن يفيد من نفع إذا أحسن اتصاله بهؤلاء النبلاء ، ولا شك أنه
كان صادق الحساب ، فإن جماعته التمثيلية ضمنت بهذه الخطوة
لدى إسكس حياة مطمئنة وأمناً من الخوف والحاجة ، وليس
بعيداً أن يكون إسكس وقد أعجب بالشاعر ، قد ظلله بحمايته وأن
يكون هو الذي دفع إلى « تشتل » الناشر بذلك الكتاب يضع

حداً لما يراد بالشاعر من سوء ، وما قد تصاب سمعته الأدبية من شر دفع اليه الحسد .

في هذا المحيط وعلى هذا المسرح ، نرجح أن يكون اللقاء الأول بين شكسبير وساوشامبتون ، فقد كان ساوشامبتون من أقرباء إسكس والمقربين اليه والمشايخين لسياسته .

ولا شك أن اللقاء أحدث أثراً سريعاً من الإعجاب المتبادل تطور الى صداقة فيها من جانب الشاعر نصيح وإرشاد ، ومديح وثناء ، ومن جانب النبل ، اخلاص وحمية وتشجيع ، وأن القارئ للمقطوعات الغنائية (Sonnets) لا يجده أن يتتبع تطور هذه العلاقة مما بدأت من نصيح ، ثم حب ، ثم غضب وفتور ، ثم عودة الى الصداقة .

ولا شك أن شكسبير قد أفاد من صداقة النبل يوم أن أصاب صناعة التمثيل والكتابة المسرحية الكساد حين أغلقت مسارح لندن في أيام الطاعون ، وأن الجماعة التمثيلية التي كان يؤلف لها ويعمل معها ، لم تتشرد في الأرض كما تشردت الفرق الأخرى ، بل ممكن لها من العمل في بيوت النبلاء من أشياع إسكس وساوشامبتون ، وأن الشاعر قد استعان بهذا على المضى في إنتاجه

غير متوقف ولا ممتنع ، وفي ظل ظليل من الطمأنينة والدعة
بيد أن المقطوعات الغنائية لا تستكمل فصول هذه القصة
الطريفة ، فلسنا نعرف ما كان بين الصديقين يوم ضرب الدهر
ضربته فأطاح بإسكس وساوشامبتون وأذهب عنهما السلطان
وإن كنا نلح أشياء في المسرحيات تشير إلى ساوشامبتون وإسكس
وتتغنى بهما رغم ما حاق بهما من نكبة .

أما وهذه الأسباب قد توفرت وهذه العوامل قد اكتملت
من حياة تضطرم بألوان من التجارب باعثة على النشاط ، جمّة
الإلهام ، واتصال بنهضة مسرحية قائمة تدفع إلى المنافسة والتفوق
وصداقة تعين على الإنتاج في غير اضطراب أو خوف ، فما أجد
الشاعر أن ينطلق في ميادين المجد ، منتقلا من نصر إلى نصر ،
مسجلا آيات بينات من الشعر الرائق الجميل ، والتصوير الفنى
الرائع ، وأن يمضى قدما إلى زعامة المسرح الانجليزى فيتسنى غاربه
وأن ينعقد له لواء الصدارة في دنيا الأدب بما فاضت قريحته من
مسرحيات خالدة .

الفصل الثالث

أوج العبقرية

سنة ١٥٩٢ - ١٦٠٨

أورث شكسبير أدب اللغة الانجليزية ، بل أدب العالم كله ،
تراثاً خالداً من الشعر التمثيلي ان تذهب الايام بروعته ، أو تبلى
جدته ، وأن التمثيليات الستة والثلاثين التي كتبها في السنوات التي
عاج فيها الكتابة المسرحية ، ستبقى مدى الايام والسنين تمثالا قائماً
لقوة التصوير المسرحي ، وثروة ضخمة من الشعر الرفيع ، هما
بمشابة الأثر الخالد ، والمنبع الصافي الذي نستمد منه كل ما يروح
عن النفس من غذاء عاطفي وفكري .

لم يكن دخول شكسبير دنيا الأدب المسرحي في ذاته إلا
حادثاً مسرحياً مكتمل التأثير ، لم تسبقه مقدمات ، ولم تتقدمه
فترة طويلة أو قصيرة من المحاولة والتجريب ، إن الصعود إلى أوج

المجد كان سريعاً ، وارتقاء القمة كان يسيراً ، لا يعثور طريقه جهد ولا مشقة ، فلم يعض إلا القليل بعد رسالة « جرن » إلى « تشتل » الناشر ، تلك التي أراد بها أن يحطم شكسبير تحطيماً لا قيامة بعده ، والتي وسمه فيها بالسرقة الأدبية والعدوان على كتابات غيره من الشعراء ، حتى تبوأ الشاعر مكاناً ملحوظاً في الصدر من الصفوة المختارة من الشعراء وكتاب الأدب المسرحي بعد أن طلع على الناس من فيض عبقريته بقصيدتين هما فينوس وأدونيس ، واغتصاب لو كريس ، لم يفصل بينهما إلا حقبة قصيرة من الزمن ، وظل إلى ست أو سبع سنوات ، سيد الأدب المسرحي غير منازع ، وذلك بعد أن انصرف كتاب المسرح عنه ، أو قضى عليهم الموت ، والذي لا شك فيه أنه حتى نهاية هذا القرن لم يكن في لندن كاتب مسرحي يستطيع أن يقف من شكسبير موقف النقد ، ولم تكن هناك مسرحيات نستطيع أن نضعها في مرتبة واحدة مع أي من مسرحيات شكسبير تلك التي أمطر بها المسرح في غير انقطاع

ولم يكن إدراك هذا النور الجديد وتقديره ليخفى على الأدباء المعاصرين وجمهور المسرح وهم قوم أحسنوا تذوق الأدب المسرحي فأغدقوا على الشاعر المديح ، وأقروا له بالتفوق ، وخلعوا

عليه الكثير من صفات التعظيم والتجيد وهذا «ميريس» Meres يكتب عنه في سنة ١٥٩٨ فيضعه جنباً إلى جنب مع أساطين القدامى من مؤلفي المسرحيات اليونانية و «ميريس» هذا هو الناقد الذى اشتهر بين قومه بصدق النظر، واعتدال التفكير، والسمو عن الغرض.

وإن من يقرأ هذه التمثيليات ولو قراءة عابرة، يستطيع أن يتعرف فيها ثلاث مراحل لكل منها صفاتها الخاصة ولونها المميز الذى ينطق بما امتلأت به حياة الشاعر من حوادث، وما حفلت به الحياة فى عصره من صور انعكست فى كتابته وبدأت فى استجابته لرغبات جمهوره، والجاهير دائماً تتقلب فى أهوائها من حال إلى حال. هذه الفترات الثلاث تتمشى مع انتقال الشاعر من أيام الشباب الحلوة المرححة إلى كمال الرجولة، ثم إلى وقار الشيخوخة وهدوء النفس، بعد صراع الأيام ومجادة السنين، وأن القارئ لتطالعه فى وضوح صور مرحلة، بهيجة، حرة، طليقة، ثم أخرى عنيفة دامية، وثالثة هادئة ساخرة هى أشبه ما تكون بضحكة الشيخ واستسلامه بعد أن عرك الأيام وتكشفت له حقائق الأشياء خالصة من فتنة الشباب وعنفوان القوة.

ففي تلك السنة والثلاث سنوات التي تلتها حتى سنة ١٦٠١ ،
كتب شكسبير مسرحياته التي تعالج حوادث تاريخية و « حلم
منتصف ليلة صيف » و « روميو وجوليت » وبقية الكوميديات
ذات الطابع الضاحك المرح .

وكأنما كانت هذه المسرحيات شاحذة لقوى العملاق ، فما
أوشك على نهايتها حتى كانت قد اكتملت في يديه الصناعة بعد
أن كان قد اكتمل في نفسه المعين السحري الذي هو تراث العبقري
وحظه الموهوب ، لم تعد الأداة تسير بين يديه إلا طيعة سلسلة
منقادة بعد أن هذبتها الأيام وجعلتها تحمل العبء في يسر ورخاء ،
لا نقول أن هذا كان دور التجريب والتعلم ، فإن من بين هذه
المسرحيات ما لا يمكن اعتباره تجربة مجرب ، ولكنه الانتظار
حتى يتوفر الانسجام بين الشاعر والأداة التي سيحملها كتابته
من شعر منظوم وشعر مرسل ، حتى إذا تهيأ هذا الانسجام
ونهضت الأداة بالرسالة شارفنا شكسبير في سنة ١٥٩٣ يمشي بخطى
جبارة لا تحسب أنها تتعثر أو تنوء بعد أن طرح عن نفسه مارلو
وارتسام خطاه ، ومضى في طريقه يخلق الشخصيات خلقاً أو
يكسو ما كان منها قديماً كساء يذهب بها جديدة على مر الأيام

وتقلب العصور ففي الملك جون King John نراه ينساب طليقاً .
لا أثر لما رلو في كتابته ، وفي جزأى هنرى الرابع وهنرى الخامس
يصل شكسبير إلى قمة هذا النوع من المسرحيات فهو فيها سيد
الكتابة ، تسير بين يديه منقاداً ، وهو فيها يصل إلى إبداع
لا مزيد عليه في خلق الشخصيات ، ومزج عنصرى الفكاهة والمأساة
في شخصيتى فولستاف المرح ، الطروب ، الإباحى ، المتحرر من
تقاليد المجتمع ، وولى العهد فى صباه ، وفي صرامته ، إذا ما تسنم
العرش وخلع عن نفسه ثوب المجانة .

إلى هذه الفترة من حياة الشاعر الكتابية نستطيع أن نرجع
روميو وجولييت وما فيها من تصوير عاطفى شائق ، ألم يذهب
الإسمان علمين خفاقين على الحب ودولة العشاق ، أو يستطيع
أمرؤ أتيح له أن يشهد منظر الشرفة أو قرأه قراءة فهم وتذوق
ألا تبقى فى نفسه منه أصداء ترجع بالحنين وتعتلج بالحب ؛ الحب
الذى هو تقديس لهذه العاطفة الشريفة والسمو بها فوق الشهوات
والنزوات

وإليه أيضاً ترجع تلك القطعة الخالدة من التصوير الأثيرى
الرقيق « حلم منتصف ليلة صيف » والتشيلية الباقية على الزمن

« تاجر البندقية » وما فى حوارها من مهارة التصوير ، ثم « جعجعة
بغير طحن » (Much Ado about Nothing) و « كما تحبها »
و « الليلة الثانية عشرة » .

حتى إذا سلخ شكسبير عام ١٦٠١ وذهب عنه الشباب ومرحه ،
ابتدأ العصر الذى أحس فيه الشاعر أنه مستطيع أن يتعرض إلى
عناصر فى الحياة هى أغزر وأقوى من مجرد الفكاهة والعبت ،
وإنك لترى الكوميديا كما كتبها فى تلك الحقبة فى رواية « صاعاً
بصاع » و « خيراً ما ينتهى بخير » و « ترويليس وكريسيدا »
لا تضج بالضحك المرح ، بل تكاد تقف بين التراجيديا والكوميديا
فالضحك فيها غير منطلق منساب ، بل تخالطه لذعة السخرية ،
ولا عجب فهى ضحكة الرجل الذى عركته الحياة وأذهبت من قلبه
تلك السلاسة والتحرر من هموم الحياة ، والانفكاك من أعبائها
الجسام ...

فأى حادث جلل ضرب بين هاتين الصفحتين فى حياة الرجل
وكتابته ضرباً جعل منهما نقيضين لا يلتقيان إلا فى قوة الشعر
وفحولته ، وبراعة التصوير وجلاله ؟ لقد ذهب النقاد فى تفسير
ذلك مذاهب شتى ، فمن مرجع ذلك إلى ما أصيبت به نفس الشاعر

وقد نكب في حبه وصديقه كما تشير إلى ذلك القصائد ، ومن
ذاهب إلى أنه وقد أحس بعض الفشل في حياته كممثل قد اكتأبت
نفسه وأظلمت نواحيها فمال إلى هذا اللون العنيف من الكتابة
المسرحية ، على أن الثابت تاريخياً هو أن شكسبير قد نكب بوفاة
أبيه في تلك السنة ، وأن وليه وصديقه الأيرل أوف ساوثامبتون
ومن فوقه إسكس ، أحقت بهما نكبة أطاحت بمجدهما على أثر
اكتشاف مؤامرتهم ، ونحن أميل إلى تصديق هذا الرأي والأخذ
بهذا المذهب ، أليست هذه هي السنة التي أخرج فيها شكسبير
يوليوس قيصر وما فيها من السمو بشخصية بروتوس المتآمر على
شخصية يوليوس قيصر الذي سفك دمه .

على أن هناك سبباً آخر يصح أن يكون إلى جانب ما ذكرنا
باعثاً إلى هذا الانحراف من جانب المرح إلى جانب العنف هو
ما يحسه الكاتب المسرحي من إرضاء أهواء جمهوره وإن كان
شكسبير قد عمل أكثر من أى كاتب آخر على الحد من غلواء
الشعب وتعطشه إلى مشاهد القتل الدامية والمأسى الحزينة العاصفة .
نعم لا بد أن كان ثمت رجعة إلى هذا اللون من المسرحيات وقد
كان سائداً في بدء أيام شكسبير وكان له الفضل في أن يصرف

جمهور المسرح عنه وأن يسمو بأذواقهم إلى إدراك أرقى وأرفع من مجرد إرضاء غرائز القتال وامتلاء النفس بها فهل هو متأثر بهذه الرجعة وهل هو مستجيب إلى جمهوره استجابة المتزلف ، أم هو مرض جمهوره ونفسه معاً ؟ لقد كان لشكسبير من القدرة والقوة ما يجعله يصيب الغرضين بغير أن يعرض أدبه المسرحي إلى ابتذال أو أن ينحط إلى مستوى السوق والدهماء ، وهذا ما تفسره مسرحياته في السنوات التي بدأت عام ١٦٠١ وتلتها ، فقد وافقت هذه السنوات ظهور « هامليت » عام ١٦٠٢ و « عطيل » عام ١٦٠٤ و « الملك لير » سنة ١٦٠٥ / ١٦٠٦ و « ماكبث » عام ١٦٠٧ ، وفيها أيضاً كتب شكسبير « تيمون الأثيني » و « صاعاً بصاع » (Measure For Measure) و « ترويلوس » و « كريسيда » وأنهى سلسلة مسرحياته الرومانية بكوريولانوس وهي مأساة تصور حياة رجل تحالفت الأيام على قهره ، والنيل منه وعصفت به ، فلا هو محبب إلى الشعب بما جلبه من نصر ، أو دفع من خطر ولا هي تقر له في شيء البعد عن ذلك الشعب الجاحد حتى يستعان به على قهر الأعداء والذود عن الوطن واتقاء الخطر الداهم ، فهو

موزع بين أهواء هذا الشعب ، وبين كبريائه ، وبين ما يساق اليه من سفارة الأم والزوج ، وتنتهى حياته العنيفة انتهاء دامياً .

وكأنما كانت هذه الحقبة كافية لتستنفذ كل قوى الشاعر من الشدة والعنف ، فما يكاد يقبل عام ١٦٠٨ حتى ينفض يديه من هذا الصراع ويخلد الى سكون ، كذلك الذى يلى العاصفة فيكتب بريكليس ، وسمبلين ، وقصة الشتاء ، والعاصفة . ثم يستدير على عقبه فإذا به يقفل راجعاً إلى بلده الوادع الأمين فى سن الثانية والخمسين بعد أن خلف هذه الثروة الطائلة الزاخرة ملكاً حلالاً لكل عاشق للجمال مفتون بهراقة التصوير .

ولعل من الخير أن نتناول الأسباب التى مكنت لشكسبير هذا المجد وسمت بكتابته درجات فوق معاصريه ومن جاء بعده من أدباء المسرح .

لعل أولى الصفات التى وفرت لشكسبير هذا ، هى قدرته العجيبة وتنوع مناحيها ، وإنك لو اجد بالمقارنة بينه وبين سابقيه أن ثمت أجزاء من مسرحياتهم نستطيع أن نضعها منفردة إلى جانب مثيلاتها فى شكسبير ولكن الذى يعجزك حقاً أن تجد مسرحية كاملة تستطيع أن تطاول أخرى من مسرحيات شكسبير

ذلك لأن كلا منهم قد أصاب قدرآ من قبس العبقرية غشيت به
 عيناه فانحبس في حدوده لا يستطيع منه فكاً كآ ، على حين أن
 شكسبير قد استطاع أن يجمع هذه وتلك ، وأن تلتمع في نفسه
 كل إشراقة عبقرية ، وما نقول أن هذا نتيجة الجهد المضني ،
 وتحصيل الكد ، ولكنه النبوغ والإلهام لا يحتويه مكان ، بل
 ينطلق كالطير ، بل هو النفس المستفيضة ، اجتمعت لها عناصر
 التفوق كاملة ، وازدحمت في جوانبها الخواطر ، فما ضاقت بها أو
 نأت ، وما يتيسر للنفس هذا حتى تكون قد أصابت قدرآ كبيرآ
 من المرونة وسهولة التكيف حتى نستطيع أن نخلص من حال
 إلى حال ، وقد كانت نفس شكسبير من ذلك الطراز الضخم تتقبل
 ولا تجمد ، وتأخذ وتعطي ، وتتفاعل فتتمو وتنتج ، فيدفعها
 الإنتاج إلى ألوان جديدة وعدتها في ذلك ثروة طيبة من تقدير
 الجمال ، ونصيب موفور من القدرة على كشف نواحي النفس
 الإنسانية ، ولعلها أيضاً تلك القوة الحارقة على تناول شتى المواضيع
 كما يبدو في مسرحياته الكثيرة ، فقد كتب المآسي المفجعة
 والمسرحيات الضاحكة والأخرى الهادئة التي تبعث على التفكير
 الهادئ الرزين ، بل إن هذه النواحي ليتناوب ظهورها لا بين

مسرحية وأخرى ، بل فى المسرحية الواحدة ، فما كان شكسبير من الذين يتقيدون بتقاليد المسرحية القديمة ولم تكن تحد من تخليقه وحدة الزمن أو المكان ، بل كان ينطلق فى تصويره المسرحى حراً من جميع القيود آخذاً من منابع الحياة بما فيها من صفو وكدر ، ففى المسرحية الواحدة عناصر الحزن وعناصر البهجة ، ودموع المفجوعين ، وقهقهة الضاحكين ، أليست هذه هى الحياة : تبسم وتعبس ، وتقبل وتدبر ، وتسر وتحزن ، وأن نقاد شكسبير ليشقيهم هذا الضرب من الانطلاق فى غير حدود ولا قيود ، فهم لا يستطيعون أن يضعوا صفة عامة تستطيع أن تصف الشاعر وما أحسبهم بعد الجهد والمشقة إلا واجدين فيه شعراء فى شاعر وجماعة فى واحد .

• على أن شكسبير كان إلى جانب هذا ذا قدرة هائلة على الخلق والإبداع كما نأ أودع فيه سر الحياة ، فهو يخلع الحياة على الشخصية الجامدة من شخصيات التاريخ فتفيض بها طبيعية خالصة لا تبصر فيها أثر التكلف أو عجز الصانع مما ضمن لها الخلود .

ولم يبعث شكسبير الحياة فى هذه الشخصيات التاريخية فحسب ؛ بل هو وهبها لغيرها من الشخوص مهما كان مبعثها ، من قصص

إلى خرافة ، وأن الخلود الذى أصابته شخصياته التاريخية قد نال نصيباً منه ، شخصيات هى من نسج الخيال فى أزمان ممعنة فى القدم وما يعجزنا فى شيء أن نضع شخصية بلك Puck وإيريل Ariel إلى جانب الكثير من شخصياته التاريخية . . .

على أن معاصريه من الكتاب لم تكن تعوزهم القدرة على الخلق فقد استطاعوا أن يبعثوا إلى الحياة الكثير ، ولكن الفارق بينه وبينهم هو أن شخصياته تتحرك بالحياة الطبيعية متقنة ، فى حين أن شخصياتهم تبدو غير متناسقة كأنها الهيولات قد أفلت قيادها من يد الصانع فبدت سخيفة منكرة ، والفرق أيضاً فى كمال الصنعة وتفاوت القدرة على ربط الأجزاء وإحسان النسب بين أبعادها

ولم يكن حظ شكسبير من هذه القدرة كحظ معاصريه يبدو فى خاطرات متناثرة ، تجود بها الطبيعة حيناً وتبخل أحياناً بل كان مدداً لا ينقطع ، تلمسه فى كل ناحية من نواحي الشخصية الواحدة ، بل تلمسه لو أردت الاستقصاء فى سلسلة طويلة من الشخصيات والناظر إلى التواريخ التى صدرت فيها مسرحيات شكسبير يلمس فى خفاء أن الفترة الأولى كما أشرنا كانت وقفاً على إنتاج مستزيد من الكوميديات ذات الطابع المرح ، ولعلها كانت إرضاء

لروح العصر المرحه والناس تتفتح أعينهم على عالم جديد فياض
بالمدهش والمعجب ولعلها كانت أيضاً صدى لما يتجاوب في نفس
الشاعر من آمال مزدهرة ، وهو ينعم بشباب متوافر ، ونجاح
مضطرد ، وصداقة معينة مساعدة فهو هنا شاعر قتي يصور وينتج
لجيل قتي ، والحياة من حوله وحولهم لاعبة مبهجة وليس في الصدر
حرج ولا عليه من آثار الحزن والا ككتاب سحابات فلم لا تنطلق
الضحكات مدوية مجلجلة ، وهذه الحياة تنساب يسيرة رضية ...
هذه صورة الشاعر في تلك الفترة وهذا عصره ، وإذا كانت الحياة
هي الربيع ، والعمر شباب ، فأية عاطفة تراها تشيع من تلك
المسرحيات ، وأية عاطفة يهيم بها الشباب إلا الحب في جميع صوره .
وشكوله من الهيام الخالص يأخذ على النفس مسالكها كما يبدو
في « كما تحبها » وغيرها من الكوميديا إلى حالة تلبس النفس وتلج
بها في غريب الأطوار ، وكلف يوغل بها في مسارب تلك العاطفة
الشبيهة لا تكاد تدرك له غاية إلا أنه الحب وكفى حق الشباب
على الحياة وحققها عليه ...

وإنك لتلبس هذا الطابع حتى فيما كتبه الشاعر من تراجيديا
في تلك الفترة فالمأساة مأساة الحب في « روميو وجوليت » وليس

هذا غريباً فما أسرع ما ينتقل الحب في سن الشباب النضرة من
تلذذ بالحياة إلى تلف يودى بالنفس ، وبطلا هذه المسرحية من
هذا الطراز من المحبين ، عصفت بهما الأحقاد العائلية والثار
الموروث ، حتى إذا ذهبت دماؤهما فداء استلت السخائم من النفوس
وطهرت من البغض وزال ما بين أسرتيهما من عدا .

× على أنك مطالع في هذه المسرحية جانباً آخرأ من عاطفة
الحب ، وما يدفع إليه المحبين من غرام يعمى العين عن النقائص
ويستهين بالتقاليد ، ويتخطى العقبات ويطوح بالفتى المتوله إلى
حصن أعدائه لينظر نظرة إلى الحبيبة لعل منها بعض شفاء نفسه ،
وما يكابد من صباة ، ويشتفى بالحديث إلى مالكة ليه وهى فى
مكانها من الشرفة ، والكلام همس خفيض ، والنجوى شارحة
ما فى القلوب من لوا عج الشوق ، منظر هو كأس من الحب مروق
خالص من الشوائب ما أحراه أن يكون غراما صافياً كحب
الملائكة ، وهذا النوع من الحب حالة تصادف الكثرة من الشباب
وهم بعد فى زهرة العمر

هذا هو اللون السائد فى مسرحيات هذه الفترة حتى إذا عالج
الشاعر فى الفترة الثانية كتابة التراجيديا العميقة القوية جلب لها

عدتها من الأقدار التي لا ترحم ، وقوى الشر التي تبعث بالنفس
الطيبة إلى أسوأ الموارد وشهوة النفس إلى القوة والسلطان
والطموح المهلك كما في ما كبت وكيد الأيام وعقوق الولد ، وغدر
الصديق كما تراه في مسرحية الملك لير ، وانقسام النفس بين نداء
الواجب وما تبتغيه من راحة ودفع هذا الواجب إلى ركوب
الآخطار كما في كوريولانوس .

أما اللون الغالب على مسرحيات الفترة الثالثة والأخيرة فهو

الهدوء والاستسلام ، لا عن عجز أو وهن ، بل عن اقتناع وتسليم
فالحياة وما فيها ، وما تبذل في سبيلها لا تعدو كلها أن تكون
سخرية لا يؤبه لها ، لا أن يسفك من أجلها دم ، أو يراق دمع ،
وما أجدرنا أن نضحك منها ، أو نطرق إطراقة المفكر ...

القصائد

إن نفس الشاعر حين تنهياً للظهور، وتتفتح للإنتاج، لا تجد إلا الشعر أداة للتعبير عن حاجاتها وأحاسيسها لأنه أكثر تمشياً مع طبيعتها المزدهرة وأيسر حملاً للتعبير الشخصي عما يخالجه من أهواء، وما يتجاوب في قراراتها من مشاعر.

وإن لشكسبير نصيباً موفوراً من هذا النوع من الكتابة، وإن كنا قد أجلنا الكلام عنه إلى هذا المكان فلأن شكسبير لم يسترسل فيه ولم يقتصر عليه، ولم ينبه به اسمه أو يخلد ذكره، ولأن الثروة الزاخرة من التمثيليات التي خلفها قد غطت على كل مجد له سواء، واقرنت باسمه في كتب الأدب. على أن في هذه القصائد أيضاً خالصاً من أصدق الشعر وأروع، وأجمل التصوير وأبدعه مما هو خليق بالشاعرية المتمكنة في إبانها وأول إنتاجها.

أولى هذه القصائد فينوس وأدونيس وهي من طراز مألوف في ذلك العصر من حيث الموضوع، ومن حيث النظم لا تعدو أن تكون اقتباساً لذلك النوع من القصيد الذي جرى على أقلام

الشعراء الإيطاليين والفرنسيين من استعارة موضوع من مواضيع الميثولوجيا اليونانية كأنما الحب والحياة في الشعر لا يستقيمان إلا إذا أبعد بينهما وبين الحياة الواقعة وحلق بهما في وديان أتيكا وعلى قمة أولمب ، والقصيدة تتألف من مائة وتسعين مقطوعة في ست أبيات تجرى على نسق مضطرب في الوزن والقافية .

ومما يجدر ذكره أن شكسبير وصف قصيدته هذه عند إهدائها للأيرل أوف ساوشامبتون بأنها با كورة شعره ، ولعل في هذا خير ما يقال عنها فهي شعر الشباب ، والشباب كما قلنا معنى يتقصى أخبار تلك العاطفة الواضحة المبهمة ، عاطفة الحب ، على أن الحب الذي يطالعنا في ثنايا فينوس وأدونيس على خلاف ما ألف المحبون فليس النقي هو المدله ، وليست الفتاة هي المتدلة ، بل إن الآية تنعكس ، ففينوس تلح في حبها ، وأدونيس يصم عنها أذنيه ولا يرى في حديثها المستفيض من الحب إلا هراء لا يستحق التردد ولا يستأهل الاستماع إليه .

هو قتي لم يصل بعد إلى العمر الذي تتفتح فيه حواسه لاستقبال هذا الزائر الحبيب ، هو معنى بالصيد والكر والفر ، مولع بريضة الخيل وطراد الوحش ، لم يستكمل بعد نموه العاطفي ، وإن كان قد

استكمل النمو الجثمانى ، واجتمعت له أسباب الفتنة والحسن ، فما هو من حديث الحب ، وما هو ممن يستهوى لبه أحاديث المحبين ، ولعله يصف الحقيقة أبلغ وصف حين يرد على فينوس يحاول أن يفسر ما أغلق عليها فهمه شارحاً لماذا لا يستجيب قلبه إلى دعائها « ألا ترين الصياد لا يمسك إلا كبار السمك ويغض عن صغارها وأن الثمرة الناضجة أسرع تساقطاً ، وأدنى قطوفاً ، وأنها أشهى مذاقاً من تلك التى لم تنضج . »

ولكن فينوس تمضى فى استغوائه تدفعها الرغبة المتأججة وهى تنظر ملاحظة الفتى وما قسم الله له من جمال طبيعى خلاب فتمسك يديه تعركهما ، وتطبع على شفثيه القبلة بعد القبلة ، تود لو كانت ديناً ملزم الوفاء مـرجل الحساب حتى تتضاعف أرباحه أضعافاً مضاعفة .

والفتى يحاول التملص من تلك اليد التى تؤلمه ولا تبعث فى نفسه إلا الضيق والازدراء ، ويسعى إلى الخلاص من عناق هو نفسه أشق من أغلال الحديد ؛ لا يحفل أن تكون الذراعان بضتين جميلتين ، أو أن تكون القبلة فياحة بالعطر ، نفاحة بحرارة الشباب

ولهيب الرغبة ، إنه لا يريد شيئا منها ، إنه يريد الانطلاق إلى صيده ولقاء أصحابه ،

وفينوس لا ينال منها هذا الصدد ، ولا يثنىها هذا الجفاء فهي تحاول تارة بالاستحذاء ، وأخرى بالاستغواء ، وثالثة بالاستنكار والإثارة أن تحرك جامد القلب أو تحيي ميت العاطفة ، ولكنها لا تلاقى إلا صداً مؤكداً ، ونفوراً لا يدينه ماتسوقه من حديث عن آله الحرب ذلك الجبار الذى خضع لحبها ولذلها أن تجعل منه أداة طبيعة مسخرة ...

وتأبى الأقدار إلا أن تسوق حادثاً فذاً ، فجواد أدونيس وكان قد ربطه إلى جذع شجرة ما يكاد يبصر فرسا حتى تتحرك فى نفسه عوامل الرغبة فيخلع عن رأسه الزمام وعن ساقيه القيد ويمضى جاحاً فى أثرها يقضى حق الإحساس الطبيعى ويمضى أدونيس فى أثره مستوقفاً ولكن الجواد لا يأبه لسيده وينطلق وراء صاحبه إلى جوف الغابة

ويعود أدونيس وقد أعجزه الجواد عن لحاقه إلى موقفه مع فينوس وقد التهب وجهه حمرة من أثر الطراد فلا يزيده ذلك إلا جمالا وهو ينحى باللائمة على فينوس التى شغلته حتى أفلتت منه الجواد فما عاد

يستطيع له طلباً وهي تسوق الحادث مثلاً رائعاً لما يجب عليه من
من حقوق لنفسه ونحو حسنه هذا الفتان ، وأن الجواد كان
أقصى منه لحقوق الطبيعة وأحسن استماعاً منه الى نداء القلب، وإن
الحياة هي الحب ومن قصر فيه فهو كنود يقتل في نفسه خير
ما ورثته الطبيعة من قدرة على الاستمتاع ونهوض الى تقدير
الجمال والنعمى به.

وتريده على أن يلقاها في الغداة ولكنه لا يستطيع
الاستجابة اليها فهو ذاهب الى الصيد مع صحبه من الرفاق فاذا
عرفت منه انه ذاهب إلى صيد الخنزير البرى وهو من أشق
أنواع الصيد وأحفلها بالخطر أوجست نفسها خيفة منه وأشفقت
أن يصيبه مكروه فتحاول أن تثني عزمه مصورة له في مهارة ما قد
يصيبه من خطر إذا ما انثنى عليه ذلك الوحش الهائج مهاجماً
وماذا يكون من أمرها لو مسه الضر وتحاول أن تصرفه عن هذا
الصيد المحفوف بالاختار الى آخر آمن وادعى إلى السلامة
كصيد الأرنب أو الغزال أو الثعلب فهو طراد لا يخشى شره
ولا يخاف خطره ، وتكاد الصورة التي تتمثل في خيالها ، وجيبها

هذا صريع قد بقرت بطنه أنياب الوحش، تقضى على ما بقى عندها من قوة فاذا هى تستلقى على الأرض شاحبة الوجه متلاحقة الأفكار وأدونيس وهو على ما هو عليه من براءة وجهل بما قد تصطنعه النساء من حيلة يخاف أن يكون قد أصابها شر فينحني عليها يحاول أن يعيد إليها الحياة، يطرق وجهها بيديه فماتكاد تحسه حتى تجذبه إليها فى عناق لا يفلقته ثم تدنى رأسه الجميل الى فمها وتصب فى أذنيه حديثا حلوا عن الحب والأحباب ؛ ولكن أدونيس وان لصق جسمه بها كان أبعد منالاً من أن يتقبل حديثها هذا أو يستوعبه وان كانت هى تذيب فى كل كلمة منه نفسها وروحها وقلبها ...

ويميل ميزان النهار وقد انقلبت الشمس من ضحى إلى أصيل حتى استقرت فى مكانها بالغروب ويتاح لأدونيس الخلاص بعد أن يكون قد انسلخ من الليل معظمه .

ولا تستطيع فينوس أن تخلص من لواعج نفسها بعد أن خلاها حبيبها الى صيده فتمضى تلاحقه البقية الباقية من الليل حتى اذا أصبح الصباح طرق سمعها نباح الكلاب وأصوات الصيادين فيرتجف قلبها رعباً وتجرى لاهثة بين الأشجار تعلق غصونها

بشعرها وتمزق ثيابها وهي لا تكاد تشعر لذلك كله ألماً ، فقد شغلها حبها عن ذلك وملاً صدرها الخوف مما قد يصيبه في هذا الطراد الوحشي ، ولكن الخوف لا يسعف الفكر بالرأى الصائب والمضطرب لا يقطع أرضاً ، فهي تقبل وتدبر ، وتصعد وتهبط ، وكأنها لم تغادر مكانها وتقع عينها على الخنزير وقد هاجته الكلاب فاحمرت عيناه كأنهما شواظ نار ، وجلل الزبد فاه ، فانقلب من الهرب إلى الهجوم ، وانثنى يشخن الكلاب جراحاً ، فهي بين عاوية تتألم ، وناجحة تلعق جروحها .

وترى فينوس في هذا فألاً يبعث الرعب في قلبها وتتصور الموت ماثلاً في المكان عادياً على حبيبها فتصب عليه اللعنة وتستمطر عليه غضب الآلهة وانتقامها لما جره من سوء على أدونيس .

ولكنها تنصت فيخيل إليها أنها تستطيع أن تسمع صوت أدونيس وهو يحث الكلاب على الملاحقة فيهدأ روعها وتعود تستميع الموت عذراً على ما رمته به من تهم باطلة .

على أن هذا لم يكن إلا من خيال القلب الواجف وتصورات الفؤاد الملهوف ، فما خيل إليها لم يكن إلا خداع النفس الواهمة

وهي تمضي في عدوها لا تلوى على شيء فإذا هي ترى أدونيس وقد قتله
الخنزير شر قتلة فكأنما غاض النور من عينيها فلا ترى أو غارت
الحياة من منابعتها فمات كل من في الكون من الناس والحيون .

ثم تعود إلى شيء من الإدراك المير قتبكي حبيها في عبارات
تقطع لها نياط القلوب ، وترتمى على الأرض تلمس الدم المراق
ويخيل إليها أن الخنزير لم يقتله وإنما ضمه إلى صدره ليروى ما في
نفسه من شوق إليه ، وهل يستطيع كائن من كان إلا أن يعشق
هذا الحسن .

والأرض التي استودعت ذلك الحسن الفتان تضم الجسد
الممزق إليها في حنان ورفق وشوق ، وتغيبه في جوفها ضناً به على
الناس ، فإذا مكانه زهرة حمراء من دمه ، بيضاء كلون وجهه
الجميل ...

وتقطف فينوس الزهرة وتضمها إلى صدرها لا تفارقها لحظة
ترعاها أنفاسها الحامية ، وترويه دموعها الندية ، ثم تنطلق إلى
مكان قصي تعتزل فيه الناس وتخلو إلى زهرتها الحبيبة ، وتعيش
على ذكر الحبيب المفقود

هذه هي القصيدة وهي كما ترى ، تصوير جميل لعاطفة جميلة ، في

شعر من أجمل ما جادت به قرائح الشعراء ، زاهر بالأوصاف
الحسان والمعاني الرائقة ، وما أجدر الحب أن تنحدر به ينابيع
الشعر خالصة ، وتنقاد له بحور القريض دانية ، وهو أصنى
العواطف الإنسانية تكويناً ، وأرقها نسيجاً ، وإن كان له في النفس
دفعة البحر الهائج ، ~~وهو من الوجه القاصف~~ ...

أما ثانية القصيدتين فهي « اغتصاب لوكريس » Rape of
Lucrece وهي كسابقتها تستمد أصولها من معين الآداب القديمة
وتتخذ صورها من دنيا التاريخ القديم ، نعم أنها لا تجعل أبطالها
من آلهة أولمب وإلهاته ، ولكنها تتخيرهم من بين أبطال
الرومانين القدماء وهم قوم بهم من العظمة ما يدينهم الى مراتب
الآلهة ...

والقصيدة من حيث الموضوع تدور على الحب وإن كان
يختلف في لونه عما عرفناه في فينوس وادونيس فهو هنا عاطفة
متأججة تستعر بالرغبة في صدر الرجل وتدفعه الى حيث
لا يرضى عقله أو ما اصطلاح الناس عليه من أسس الخلق وقواعد
الشرف والكرامة

ولك أن تتصور مكانا بعيدا عن روما وقد قام فيه معسكر

للجند على قدم الاستعداد لحرب من تلك الحروب التي كانت
تشنها روما على جاراتها في شبه الجزيرة الإيطالية.

ولك أن تتصور القواد وعلى رأسهم تاركوين قد جلسوا الى
حديث متنوع النواحي بعد أن فرغوا من تناول العشاء والحديث
ينتقل بهم من موضوع الى موضوع حتى يتناول حديث زوجاتهم
وما يكابدون من حرارة الشوق اليهن ، ثم يتحدث كل منهم عن
زوجه حديثا فيه الاطراء وفيه الاعجاب وفيه الاشادة بفضائلها
والتنويه بطهرها وحفاظها ، ويجرى الحديث على هذه الوتيرة
كأن ليس بين الزوجات من استخفها النزق الى تفريط أو مروق
وأغراها البعد عن الزوج بالترفيه مع العشيق ، ثم يجمعون أمرهم
على خاطر غريب هو أن يخفوا جميعا إلى روما ليروا بأعينهم
ما عليه زوجاتهم من حال وليشهدوا صدق ما ذهبوا اليه أو كذبه
وتنال الفكرة قبولا فهم على جناح الطائر الى مخادع الزوجات ،
فاذا كلهن إلا واحدة في شغل عن أزواجهن بالفتيان الحسان :
تلك هي امرأة كولاتين لم تسلك ما سلكه الأخريات من التمتع
بحياة الترف في روما ولا عجب فهي امرأة نبيلة تزوجها رجل من

من أنبل سادة روما ، لقد كانت تقيم النهار والليل على ذكر زوجها مخلصه له متفانية في سبيله

على أن هذه الصورة الكاملة عن العفاف والطهر لم تكدلتحد مما يضطرم في نفس تاركين من حب طاغ ورغبة أثيمة ، فهو لا يكاد يمضى مع الآخرين الى المعسكر حتى يعود بعد أن أسدل الليل مرة أخرى الى بيت كولاتين يتظاهر أن سببا قويا قد دعاه الى العودة الى روما ، وأنه قد دهمه الليل ونال منه التعب يلتمس الراحة والعزاء في بيت صديقه .

وتنهض لوكريس فتقوم باكرام الضيف العظيم ، وتجلس اليه مؤنسة بالحديث وتستمع اليه وهو لا يفصح عن الرغبة الكامنة ولا الغرض المستور ، ثم هي تستأذنه في الانصراف الى مخدعها بعد أن تطمئن الى أن أسباب الراحة متوفرة له .

ولكن تاركين لم يكن بالذى ينام ، ولم يكن النوم هو الذى جاء به فما تكاد تتغلق الأبواب حتى تضطرم في نفسه ثورة جاححة ، وحتى يتملكه جنون الرغبة المستعرة ، فهو ينهض الى ثيابه يرتديها ، والى سيفه يتحملة ، والى زناده يقده ، ويستوحى الثورة والإقدام من ناره المستعرة ، ويقسم ليجعلن صور لوكريس

تشتعل بالنار كما استطار الشرر من ذلك الحجر الأصم .
ويمضى فى ممرات البيت وطرقاته ، يدفع الأبواب الموصدة
فتنتفتح كما لو كان بها حشية من عذابه وخوف من سطوته ، وإن
كان الصرير الذى تحدّثه يبعث فى قلبه موجات متتابعة من التردد
ولكنه سرعان ما ينضى هذا التردد عن نفسه ويبعث من صدره
الملهب أنفاساً حامية لا تستطيع ریح الليل البارد أن تطفئها أو
تنال من حدة لهيبها .

وتتفتح الأبواب واحداً بعد واحد حتى يلج المخدع الطهور
فاذا لو كريس نائمة فى وداعة الأبرار ، تتصاعد أنفاسها هادئة
منتظمة ، ويفتح تاركوين عينيه على المنظر الخلاب ، يكاد يلتهم
الجمال النائم التهاماً وليس فيه إلا ما اشتتهه نفسه والتهبت من أجله
رغبته ، هو ينظر إليها نظرة الأسد الى الفريسة قد استلقت عند
قدميه بعد طول الطراد ، هذه الشفاة الجميلة ، وهذا الجبين المنير ،
وهذا الجسم الممشوق كلها بين يديه ، وكأنما حدث هذه النظرات
النهمة من جماع الرغبة فهو سكران ينظر ولا ينهض إلى شىء مما
منى النفس به ، ولكنها سكرة قصيرة تنتهى الى ثورة عاتية يغلى
بها دمه فيوقظ لو كريس إيقاظاً رقيقاً ، وهى تفتح عينيها فى بطل

أول الأمر ، لا تكاد تدرك مما حوالها شيئاً على أن تاركين يعاجلها بالسبب الذى حدا به إلى هذه الزيارة المباغطة ولعله كان صريحا الى أبعد حدود الصراحة فما كان المقام مقام إشارة أو تلميح وتحاول لو كريس أن تصده عن غرضه وتذكره بما يجب عليه من حق الوفاء لصديقه وما عليه من واجبات الرجل النبيل ، وتستصرخ فى نفسه المحتدمة عوامل الشرف ، وتنادى سلطان العقل تستعديه على الثورة الآثمة ، ولكن الرجل كان قد أعماه الغرض فهو لا يستجيب الى دعائها بالشفقة والرحمة ، بل هو يأخذ عليها سبيل الاستزادة من هذه الأسباب فيقول لها إن نفسه قد قام فيها كل هذا الحديث وأنه قد حاج نفسه ودافعها فلم يفلح فهي له أرادت أم لم ترد ، وليس عليها من جناح إن هي أطاعته وإن هي أبت فهو قاض غرضه وأنه لقاتلها بعد ذلك ، ثم يقتل أحد عبيد الدار ويضعه على فراشها ، ثم يذهب يقول انه وجدها مع العبد فثارت فى نفسه الغيرة وقتل الخائنة وقتل معها العبد الذى دنست معه مخدع الزوج .

وهو يضعها بين الأمرين : إما النزول على ما أراد ، وإما الاقتضاح ، يبقى مدى الأيام حديثاً تلوكة الألسن ويتنادر به

المحدثون ، ويصور لها ما يصيب زوجها من عار وأهلها من شقاء .

وتعود لو كريس الى الاسترحام وتريق الدمع عساه ينال ما تصل اليه الحجب والأدلة على أن الدموع لم تكن لتحي ضميره الميت فهو في شغل عن هذا كله بل هو لا يسمع له ، لا يهمه أن يكون مليكا دنس صفات الملك ، أو صديقا خان عهد الصداقة ، ما دام قد أشبع رغبته وروى نفسه الصادية ، وأراح حاجات القلب المهتاج .

ولا تجد لو كريس دفعا للداهية فتستسلم للقضاء وتخضع للبلاء يحل بها في جوف الليل الذي هجم فيه كل شيء إلا ملائكة الشر وما تسخر من الناس .

وتبكي لو كريس وتحاول أن تباعد بين نفسها وبين الصباح حتى لا تشرق الشمس على شرفها المسلوب ، ولكن الصباح يصبح والشمس تطالع فترسل لو كريس في طلب زوجها فاذا قدم ورآها متشحة بالسواد استوضحها الأمر وما تكاد تلقى عليه الخبر حتى يثور له ثورة الرجل الشريف أصيب في شرفه ، ويثور معه نبلاء روما وساداتها كأنما حلت المصيبة بهم جميعا وتشتعل نيران الثورة

فتحرق أول ما تحرق أسرة تاركوين وتقصيههم عن الملك .
والقصيدة تقع في مائتين وخمس وستين مقطوعة من سبعة
أبيات وهي كما ترى صورة للون جديد من تلك العاطفة الغريبة
فليس هو نداء قلب لقلب ، ولا استجابة النفس الى النفس ،
ولكنه الحب في أعنف صورته وأغلاظها وأقربها الى مراتب
الغريزة الدنيا ، تنطلق في غير عقل ، ولا تقف حتى تصل الى تحقيق
الغاية وإن تردى في سبيلها الشرف وأهدرت الكرامة .

والموازنة بين هذه القصيدة وفينوس وأدونيس تدلنا على أن
ثمت تقدما ملحوظا لا في الوصف الشعري فإن في فينوس وأدونيس
تصويراً أدق وأبدع ، ولكن في تملك ناصية النظم والسيطرة على
الأداة سيطرة القادر المتمكن ...

المقطوعات الغنائية

وهذه مجموعة من القصائد القصار يبلغ عدد المعروف منها مائة وأربعة وخمسين ، وقد كانت دائماً موضع الكثير من التفسير ومبعثاً لطائفة كبيرة من القصص استعان بها النقاد على أن يستبينوا النواحي الخافية من حياة الشاعر العظيم فأولوا الإشارات العارضة فيها الى ما جرى في حياة الشاعر نفسه من غرام فاشل وصداقة مخيبة ، بل ذهب الكثيرون إلى اعتبارها سجلاً كاملاً لحياة الشاعر ، واعتدل البعض فجعلوها وصفا للعلاقة بين شكسبير وبين الأيرل أوف ساوشامبتون ولهم عذرهم في ذلك فإن هذه المقطوعات لم تكن إلا سييلاً من المراسلة بين الشاعر وصديقه تناولت أشتاتا من المناسبات وعالجت قدراً كبيراً من المواضيع ، ولعل الذي دفع النقاد الى هذا دفعا هو أن الشعر الغنائي ذاتى صرف يتحمل قبل كل شيء تعبير الشاعر عن نفسه قبل أن يكون عرضاً موضوعياً لما يجرى في نفوس غيره من الناس

على أن الثابت أن هذه المقطوعات وقد أهديت إلى شخص رمز إلى اسمه بالحرفين الأولين من اسم الأيرل أوف ساوشامبتون

تحمّل في طياتها قصة طريفة وفيها فيض متزايد من العاطفة الرقيقة . وفيها عتاب على ما كان من غدر الصديق واستئثاره بغادة سمراء كانت موضع حب الشاعر ، ولكن الغدر لم يغير في الصداقة فهو يبذلها خالصة لا شائبة بها ويزجى معها النصيح بريئاً لا يريد به إلا وجه الخير .

وسواء أضحّت هذه القصة وكان بطلاها شكسبير وصديقه الأيرل أوف ساوثامبتون أم لم تصح فإنها في حد ذاتها بعيدة عن هذه الملابس قصة طريفة حسنة التصوير تلذ القارئ ويأخذ بلبه موسيقاها الشعرية الساحرة وما احتوته من صور شعرية رائعة وإدراك لطيف وعاطفة جميلة .



الفصل الرابع

عبقرية الشاعر

بدأ شكسبير الكتابة للمسرح سنة ١٥٩٢ ، وظل نجمه يعلو وصوته يرتفع ، والعبقرية تتفتح بين يديه حتى بلغ القمة وجاوز قدرة البشر في الإنتاج والإبداع في فترة لا تكاد تتجاوز العشرين عاما ، نعم أنتج شكسبير في هذه الفترة من سنة ١٥٩٢ الى سنة ١٦١٢ سستا وثلاثين مسرحية كلها مثل واضح للعبقرية المفتوحة والذهنية الجبارة ، والمتبع لروايات شكسبير العديدة حسب ترتيبها الزمني يهوله النمو الفكري والاطراد العبقري في ذهنية هذا الشاعر ، فالقارئ لشكسبير إذا عني بالترتيب الزمني يلاحظ ولا شك النمو التدريجي لمساكناته العقلية ، ولخياله الفسيح ، ولتعبيره الواضح ، فهو أشبه شيء بجنى سليمان الذي كان محبوبا فما أن فك

A

أساره حتى انطلق من محبسه كالريح الراعد فملاً الجو، وخيم على
 السماء والأرض، فهو مارد لا يقاوم؛ وإن يكن شكسبير قد بدأ
 الكتابة في سن الثامنة والعشرين وهي سن متقدمة إذا قيست بسن
 النابغين من أمثال كيتس (Keats) وشللي (Shelley) فكتاباته
 الأولى لا يبدو فيها أثر للعبقرية فالقصيدتان اللتان تعتبران أول
 نتاجه العقلي وهما: فيتس وأدونس، واغتصاب لوكريس
 (Venus & Adonis, Rape of Lucrece) لا ميزة لهما على غيرهما
 من الشعر في العهد الإليزابيثي ولكنهما يظهران ناحيتين من قوى
 الفنان فهما ينطويان على غناء في الناحية العاطفية الشهوانية التي
 لا يمكن كما قال «جيت» أن يستغنى عنها فن من الفنون؛ والناحية
 الأخرى هي ناحية القوة التصويرية — فالقصيدتان مليئتان
 بالصور التي التقطتها حواس الشاعر سواء في ذلك الصور المرئية
 أو الصور الحسية، ونعني بالحسية التي وصلت إلى ذهن الكاتب
 عن طريق الحواس الأخرى وهي اللمس والسمع والشم في
 بعض الأحيان إذ أن شكسبير مرهف الحس في كل ناحية من
 نواحيه تكاد تحس الحركة في تعبيراته وتتسماع الصوت في تخيلاته
 هذا إلى أنه رجل عامر القلب بالألوان يلون كل صورة بلونها

الطبيعى ويوشى حواشيها بكل ما يجلب لها الحياة والحركة، وإنك لتحس ذلك فى وضوح وقوة إذا ما قرأت وصفة للأرنب فى قصيدة فينيس وأدونس، وأهم ما يتميز به شكسبير فى مراحل الأولى حب خالص للفظ الجميل، وأناقة متصلة فى التعبير الرائع فهو مغرم باختيار الألفاظ، مفتون بالتعابير الجذابة والعبارات الخلابة فهو يبذل جهداً فى أن تكون عباراته منمقة رشيقة ذات رنين وجرس يستهوى الأسماع ويملك القلوب، وهذا لا شك لا يتوفر للكاتب أو الشاعر إلا إذا بلغ درجة من الكمال فى المعرفة باللغة وفنونها وأساليبها.

والبحت فى طريقة شكسبير فى التعبير يجرنا إلى نقطتين هامتين متفق عليهما بين أهل النقد الأدبى : —

فالكاتبه اما أن تعتمد فى قوتها على الفكرة وحدها تاركة لقوة الفكرة أن تشغل ذهن القارئ وأن تسمو به فتغض طرفه عن البحث فى قوالب الفكرة أيا تكون، وأما أن تعتمد على اللفظ الرنان والمحسنات البديعية والصياغة اللفظية بحيث تخلب نظر القارئ أو السامع فتلهيه بجمال هيكلها وخلابة مظهرها عن البحث فيما وراءها من معان سامية وأما أن تجعل من هذه القوالب الشفافه

الريقة أوعية لعصارة الفكر المسكرة التي تستهوى العقل وتسترعى النظر بقوة أفكارها وجمال لفظها ، وهذه مرتبة الخالدين لا يصل إليها الكاتب أو الشاعر إلا إذا صفت نفسه ورق حسه ، ونستطيع في غير تحفظ أن ننسب كتابات شكسبير الأولى إلى الطريقة الثانية فهو في سن الثلاثين أحب اللفظ للفظ وعنى بالكلمات لما فيها من موسيقى أو رنين ، كان يبحث وينقب عن اللفظ فيأخذه أيان يجده ، وكانت له في ذلك حساسية مرهفة وأذن واعية ، ومن حسن الحظ أن الزمان إذا جاد بالعبقري هياً له عصرأ تتفتح فيه الحياة في شتى المناحي وتتعدد فيه التجارب حتى لينشأ لكل تجربة لفظ جديد ، ولكل حركة معنى مستطرف لم يسبق للإنسان استعماله ولا طراً على باله استغلاله ، فهى ألفاظ بكر ، لها جدتها ولها طلاوتها ولها قوتها ، ولذلك فإن الفنان حينما يستعملها لأول مرة تكون لها حيوية وقوة لاتعدلها حيوية ، وعصر شكسبير كما صورناه كان عصرأ مليئاً بالمستحدثات عامراً بالمدهشات ، في كل ناحية من نواحيه فيض من تجارب وفيض من تعابير ، كانت الأرض أمامه خصبة مثمرة لا تحتاج إلا إلى العمل والتفكير

العبرى لخلق من هذا الشتات المتناثر أثراً خالداً يحيا على الزمان .

كانت اللغة على عهده مليئة بالاصطلاحات القانونية والدينية ، وكان لأهل المدائن حديث وفكاهات ، ولأصحاب الحوانيت والفنادق وأهل الحرف حوار طريف يتبادلون فيه النكتة الرائقة والفكاهة المستملحة ، وكان لهم قصص خلاب ونوادير وحكايات يتناقلونها عن البحارة والقرصان ويضيفون إليها من خيالهم الخصب ما يستهوى لب السامع ويخلب حسه ، وكان إلى جانب ذلك لأهل القرى حديث موسوم إن امتلاً حيناً بالخشونة فهو لا يخلو من جمال شعري ورقة فياضة أضفتها عليهم حياتهم الريفية المليئة بالصورة الخلابة من نهر وشجر وزهر وطير ، وكانت لهم غدوات في البكور، وروحان في العشي، وسجعات مع الأطيوار، وطراد مع الغزلان ، وحب مع الربيع ، وأسماء يكتبون بها الأزاهير ويسمون بها الورود والغدران — كانت لهم كلمات وكانت لهم صور وحكايات وكانت لهم أحاج وألغاز وكانت لهم نوادر وأمثال يتناقلونها ويتمثلون بها ، وكانت لهم أشعار يتغنون بها ترجع إلى أجيال وأجيال فهي أشعار الجماعات وحكم الزمان

وأمثال الأيام — من هذا كله ألف شكسبير قصصه وشعره
ومسرحياته، فإن يكن العصر عامراً بالألفاظ المحلية فقد جلب له
تفتح العالم وراء البحار، وخروج الناس للكشف والجرى وراء
المغانم والأسلاب ألفاظاً متعددة وعبارات متجددة؛ جاءت من
الشرق ومن جزائر الهند الغربية والمكسيك ومن أمريكا الجنوبية
ومن إيطاليا اللاتينية، ويا ليت الأمر اقتصر على هذا الفيض
الداخلي والخارجي بل إن محبي الألفاظ والغائصين على دررها
حفزهم حب التجديد على النحت واستخدامات الألفاظ والتراكيب
فيكانوا ينحتون لكل معنى جديد لفظاً جديداً ويخلقون لكل
صورة مستحدثة لفظاً مستحدثاً، وعلى الجملة فقد كان عصر
شكسبير عصر تجديد في اللغة — كان شكسبير قطب الرحى فيه
فقد جمع من كل بستان زهرة ومن كل غدير قطرة، جمع ما سمع
في القرى وما أحاط به في المدن وأضاف إليه ما استفاده من
قراءاته وما أخذه عن شوسر (Chaucer) والمؤلفين القدماء، ومن
التراجم المتعددة لآثار الإغريق والرومان — وعى صاحبنا كل
ذلك وأعمل فكره في النحت والتجديد حتى ليقال إنه أضاف إلى
اللغة الانجليزية من الكلمات والعبارات أكثر مما أضافه الكتاب

والشعراء الإنجليز مجتمعين ، ولم يكن شكسبير في تجديد متطرفاً ولا ملتوياً ، بل كان يؤثر اللفظ الحبيب على اللفظ الغريب وبذلك استطاع أن يؤلف من هذا الشتات المتناثر من الألفاظ جنة وارفة الظلال استمتع بجمالها وحسن تنسيقها الناطقون بالإنجليزية على مر الأيام . ولم يقتصر ما قدمه شكسبير إلى اللغة الانجليزية على الألفاظ بل إنه لحسن الحظ قد أضاف إليها معينا لا ينضب من الصور الخلابة والتعابير الرائعة تربو على ما قدمه أى كاتب أو شاعر فى أى لغة من اللغات وأن شكسبير بهذا ليعد من مبدعى اللغة الانجليزية الأفاض ، بل إليه وحده يرجع الفضل فى ذبوع صوتها وانتشارها فى آفاق الأرض فقد كانت اللغة الانجليزية حتى أواخر القرن السابع عشر غير معروفة أو مقروءة فى خارج أرض الوطن إلى أن ذاع ذكر شكسبير وملاّت عبقريته الأسماع فذاعت معه اللغة وأضحت فى مدى قرنين من الزمان لغة عالمية يتحدث بها الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، بل أضحت من مقومات الحضارة الإنسانية ووسائل التقريب بين الناس أجمعين ، على أن هذه اللغة التى تدين لشكسبير بوجودها وحيويتها والتى بفضلها أضحت ساحر العالم الأول لم يسلس له قيادها ولم تواته ألفاظها

طبعة سهلة إلا بعد جهد ومشقة ، وأنت لا تكاد تشعر في رواياته الأولى بطواعية الألفاظ له وانقيادها لمغانيه بل إن ألفاظه وعباراته في أولى مؤلفاته لا تكاد تخرج عن مألوف أعمال المؤلفين والكتاب من الشبان على عهده ولكن مع مرور الأيام نلاحظ في مؤلفاته قوة سحرية تتسلط على الألفاظ فتخضعها لسلطانه وتليها لإرادته حتى تضحي خاضعة له يصرفها حيث يشاء ويضعها حيث يريد ، يتلاعب بها ما شاءت له قوته فيفتن في إخراجها ويأتي بالمعجز المبدع الذي يسحر العقول ويسبي الأفتدة وإن كثيراً من سلطان شكسبير على النفوس ليرجع إلى هذه الملكة ملكة التسلط على اللفظ ، فقد تشاهد مشهداً جميلاً من روايات شكسبير فتأخذك روعة إخراجهِ وروعة تمثيلهِ ولكنك لا تلبث أن تسمتع إلى عبارة رنانة من عبارات شكسبير الخالدة فيأخذك سحر لفظها ويسمو بك عن دقة التمثيل وجمال الإخراج ويرتفع بك إلى عالم علوى تنسى فيه كل شيء إلا حلاوة هذه الموسيقى التي تتدفق في رفق وحنان في أذنيك الواعيتين وأن هذا السحر اللفظي المعجز ليحمل بعض الناس على السرف في الخيال فيزعمون أن شكسبير لم يؤلف رواياته إلا ليهيء لألفاظه الساحرة ومغانيه

العاطرة سبيلا للانطلاق إلى أسماع الناس لتسكروهم بحلو رنينها
وجمال تنعيمها ... لقد استطاع شكسبير بهذه القوة السحرية الفذة
أن يجعل من شخصه شعراء خالدين ... ألم ينطق عطيل Othello
ذلك العسكري الاسود بالشعر الحلال ... ألم ينطق ماكبث
Macbeth ذلك السفاح الآثم بالآيات الخالدة ، لقد أنطق شكسبير
من لا يحس ولا ينطق بالشعر المأثور حتى أياجر Iago ذلك النمام
الدساس كانت له كلمات يقطر منها رحيق خلاب - لقد واثت
شكسبير الالفاظ ودانت له العبارات وأصبح شعره ينساب في
رقة كالجدول المترقق فيضفي جمالا وفتنة على كل ما يلمسه من
صور أو يخرج منه معان

ولعل أول ما بدت هذه القوة الشعرية كانت في روايته «سيدان
من فيرونا» فقد ظهر ذلك بوضوح في أغنيته المشهورة من هي «سيلفيا»
على أن هذا لا يعنى أن رواياته التاريخية التي سبقت «سيدان من
فيرونا» كانت خلواً من سمات العبقرية فهي وإن تكن في معظمها
غير متميزة الأسلوب ولا واضحة النسبة إلى شكسبير فإن بعض
جوانبها الخطائية تنبئ عن يد الفنان وتكشف عن هذه الملكة
الساحرة الغلابة ملكة السيطرة على اللغة التي تبدت في عنفوانها

ونضوجها الكامل فيما تلا « سيدان من فيرونا » من مسرحيات
وأشعار . وشعر شكسبير يتميز بالسلاسة والسهولة المعجزة وهو
إلى إعجازه ينفرد بخاصية تسمو به عن كل شعر آخر ألا وهي
انفراده بالتصوير الخيالي المبدع وإخراج أفكاره ومعانيه في
قوالب شفافة كلها جمال وجلال ... إن وراء كل كلمة عند شكسبير
صورة أخاذة ووراء كل عبارة استعارة فتانة هي سر العظمة
ومفتاح العبقرية ... إن قوة شكسبير الخارقة تجعل استعاراته
وتشبيهاته تتدفق متدافعة كالسيل ، فأفكاره تنتقل من استعارة
إلى استعارة ومن صورة إلى صورة ... وهو لا يحتاج إلى جهد في
نحت هذه الاستعارات أو صياغة تلك التشبيهات فهو يغترفها من
من معين الطبيعة الذي لا ينضب ومن مشاهداته التي لا تحد هو
يقطفها من الأشجار ويغترفها من الانهار ويقطفها من الأزهار
ويستلمها من السموات والارض ، ويستلمها من السحب
ويحييها من كل شيء عظيم أو هان ، هو يصور من البيت ومن
الحقل ومن الغابة ، ومن الجوارح ومن الغزلان ، ومن الاسود
ومن الضباع ، ومن حركات الإنسان وسكناته ، بل من كل
شيء ، انه يرسم ويصور ويمثل بما لا عهد لمخلوق به — انه يعجز

البشر ويسمو بصوره عن النقل إنه يصور بالاذن ويصور بالشم
ويغرم إلى حد بعيد بتصوير الحركات وتنميق الاصوات تسمع
في دنياه دق الطبول ، وزمر الابواق ، وزئير الاسود ، ونباح
الكلاب ، وحفيف الاشجار ، وحوافر الخيول ، ومد الانهار ،
وجزر البحار ... لقد كانت هذا الصور وتلك البدائع عند شكسبير
في أول أمرها محسنات لفظية الغرض منها الزينة والتجميل ولكنها
لم تلبث أن تحولت إلى محسنات معنوية تشترك في خلق الشخصية
التي يريدونها ، بل وتضفي على وجودها حيوية فياضة ...

إنه الشرق والشمس جوليت

فاشرقي أيتها الشمس الجميلة واقتلي هذا القمر الحقود

الذي هذه السقام وأذواه الحزن

هذه كلمات روميو عند ما رأى محبوبته جوليت تطل على
البستان من نافذتها في إحدى روايات شكسبير الأولى « روميو
وجوليت » وهي لا شك عبارات مليئة بالصور المزيّنة — على
حين أننا إذا قرأنا القطعة المشهورة في ما كبث :

غداً وغدا وغدا

يزحف في خطوات وثيدة من يوم يوم

حتى المقطع الاخير من زمنه المكتوب
ان أيام أمسنا الدائرة تضيء الطريق
للإغرار الى لحد القناء

انطفئ ... انطفئ أيتها الشمعة الذابلة

فما العمر إلا خيال زائل وما الحى

إلا ممثل ضعيف يخطو على المسرح

ثم ينطوى فكان لا شيء

إن الحياة قصة يرويها أبله مليئة بالأصوات

والصخب الذى لا معنى له

نرى أن صور شكسبير التى تملأ هذه القطعة تتفاوت بين
السمع والبصر والحواس والحركة ونرى أنها لم تعد محسنات يقصد
بها إلى الزينة فحسب ، بل أضحت جزءاً من الفكرة وضوءاً
يكشف عن معنى مخبوء وراء خلاصة اللفظ وجماله — لقد أضحى
شخص شكسبير يعبرون عن أفكارهم بالصور ، وأضحى للصور
مكانها فى أدب شكسبير يتميز به وتعطيه طابعاً خاصاً ندر أن
نجده عند غيره بهذه القوة وهذا الارتباط الوثيق بين الصورة
والمعنى وبين الاستعارة اللفظية والفكرة ،. لقد صارت كل كلمة

من كلماته تنبئ عن صورة يرسم خيالها في الذهن وتربط الصور وتبدو لعين القارئ في سرعة البرق الخاطف — وشكسبير إلى قدرته العظيمة في خلق الصور المعبرة سهل اللفظ سلس التعبير لا يجشم قارئه جهداً ولا مشقة بل يجذبه جذباً بحلاوة لفظه التي لا تجارى وانسياب فكره الذي لا يبارى .

لم يقف جهد شاعرنا عند حد النحت اللفظي والخلق التصويري الذي يتتابع في يسر وينساب في موسيقى حلوة تتفتح لها القلوب وتنجذب لها الآذان ، بل بلغ بالتصوير الغاية ، وجعل الاستعارة والمجاز والتشبيه آلات في يده يتلاعب بها كيف شاء ويضفي عن طريقها الألوان التي تروقه ، ويرسم الظلال التي تعينه على تهيئة الجو الذي يريده لقصته والذي يجب أن يتنفس فيه أشخاصه وأن يتكلموا على ضوءه — إن استعمال المجاز والتشبيه قد بلغ درجة من القوة والدقة في يد شكسبير الماهرة استطاع بها أن ينسج لكل رواية من رواياته ركازاً من اللون والتصوير يوضح موضوعها ويناسب جوها ، ونحن إن تأملنا رواية ما كبث مثلاً نشعر أن جو القصة الخفيف أنما هيئة في أذهاننا وأعدتنا لاستقباله عديد الصور التي طغت على كلمات شخصه وأنطقهم بما يخلق الجو

الذى يتنفسون فيه ، ويرجع السر في قوة ما كبث وتأثيرها إلى تلك
الصور المظلمة التي كانت تتابع تتابعاً يقطعها في بعض الأحيان
لمحات من الضوء اللامع وإلى ذلك اللون القاني لون الدم الذى
امتألت به صورها وفاض بتأثيره حوارها — الدم الدم ...
الدم ... لقد كان هذا هو النغمة الخفية التي تنساب في كل ناحية
من نواحي القصة ... فما كبث يرى قطرات الدم تنسال على الخنجر
الخيالى الذى لازمه شبحه قبل مقتل دنكان — ويرى الدم
يلطخ يديه بعد ذلك بدرجة خيل اليها معها أن ماء المحيط بأكملة
لن يزيل أثره من يديه ولكن هذا الدم المتدفق سيحيل زرقه ماء
المحيط الى حمرة قانية — وليدى ما كبث تلازمها الصور الدموية
وتلطخ يدها حتى يخيل اليها أن كل طيب بلاد العرب لن يزيل من
يدها رائحة هذا الدم المسفوح — إن كل أشخاص الرواية
يتحدثون عن الدم ونسيج الرواية سداه ولحمته الدم ، فهذه الصور
المتلاحقة قد زادت الفاجعة أثراً ، وليس هذا الركاز محسباً في
ما كبث وحدها بل في كل مأساه نجد صورة تسود
كل الرواية وتسيطر على حوادثها وتهيم الجوى الذى يتنفس فيه
أبطالها، فروميو وجولييت مثلاً تسودها صور الضوء اللامع الذى

يلمح كالبرق الخاطف ثم لا يلبث أن يختفي . ففيها ضوء الشموع وضوء
المشاعل واندلاع للهب ، وانفجار البارود ، ولمح البرق ولمعان النجوم
من هذه الأنوار التي تلمح ثم تختفي اتخذ شكسبير قصة هذين
العاشقين روميو وجولييت اللذين ما كاد الحب يتفتح لهما ، وما
كادت الحياة تبسم لهما حتى طغت عوامل البغض والحسد وصروف
الحدثان ، ففرقت بين الحبيبين ، وباعدت بين الأليفين ، وقضت
على العاشقين قبل أن يستمتعا برحيق الحب ويتذوقا معسول الحياة
فمات كل منهما قبل أن يرى صاحبه وذهب ضحية الوفاء أو على
حد تعبير جولييت « لا لا هذا حب مفاجيء جاء كالبرق الخاطف »
أو على حد تعبير الكاهن « إنهما كالنار والبارود إذا
تعانقا انتهىا » .

والصورة السائدة في هملة هي صورة المرض والداء ، صورة
قرحة خفية تقلب المزاج وتشير الأعصاب ، على حين أن الصورة
التي تسود أنطوني وكليوباترا هي السعة والعظمة إذ فيها يبدو العالم
الواسع والقوى القاهرة ، والشمس الباهرة ، والقمر الساحر ،
والنجوم الزاهرة ، والسماء الصافية
ويستطيع المتأمل أن يجد هذا الركاز الذي يهيء به شكسبير

جو رواياته واضحا في الملهة كما هو في المأساة وإن يكن في الملهة
يعتمد على الموسيقى اللفظية التي تناسب في سطور حوارهِ فتجعله
مقبولا محبباً.

وموسيقى شكسبير، موسيقى علوية يستمدّها من السماء
ويستوحى منها من الطير فلا يخطئ وقعها ولا ينبو رنينها ولا يثقل
على الأذان نغمها فلشعره بهذا قوة سحرية تمتاز بالصورة والنغم
واللفظ والمعنى الرفيع

أنظر إلى هذه الصورة في رواية « تاجر البندقية » « إن القمر
يسطع وقد حنى النسيم العليل على أعالي الأشجار في قبلة هامسة ، في
هذه الليلة وقفت ديدو على شاطئ البحر العجاج تدعو حبيبها
للعودة إلى أحضان قرطاجنة ملوحة بصفصافة في يدها . »

بلغ شكسبير بشعره القمة التي لا يتناول إليها شاعر مهما
سما فهو شاعر الجمال للجمال، وشاعر السحر والخلود، كتب كثيرون
الشعر قبله، وكتب كثيرون الشعر بعده، ولكن ما من واحد في
الغابرين أو في اللاحقين قد بلغ مبلغه أو فرى فريه . صحيح أن
التاريخ يحمل لنا في صفحاته أسماء شعراء خالدين من أمثال
أرسطوفان وايسكس من عباقرة الإغريق، ودانتى ومilton وشلي

ويرون وغيرهم ، ولكنهم جميعاً إن سموا في ناحية وطاولوا
شكسبير في جزئية من جزئياته فهم لم يجمعوا ما جمع ولم يخلقوا
ما خلق ولم ينبغوا كما نبغ . لقد كان شكسبير نسيجاً وحده تحدث
عبقريته الزمان وقطعت الطريق على كل مفتن وملهم فإن يكن شغف
الناس به قد وصل إلى حد أن قال فيه أحدهم « أن الآلهة في عليائها
تسمى كوكب الأرض باسمه لما نالها من فخاره ولكن كثرة ما تردد
اسمه على كل لسان فيها » فلا عجب في ذلك فقد فتح شكسبير
بكتاباتة للفن آفاقاً جديدة ، وللموسيقى عوالم مستحدثة ، وأحدث
ثورة في عالم المسرح والتأليف قلبت أوضاع أرسطو ووحدات
الفرنسيين الثلاث ، وفتحت عهداً جديداً في حرية التأليف من
غير قيد ولا شرط وبدأت مدرسة كثير المعجبون بها وطار صوتها
من إنجلترا إلى ألمانيا ومنها تلقفتها أقلام النقاد وألسنة الكتاب
فأحدثت عجباً وبدأت في الفن والتأليف سيرة جديدة — وشكسبير
بهذا لا يعد شاعراً فحسب ، ولا مؤلفاً مسرحياً فحسب ، ولا
مصوراً فحسب ، ولا موسيقياً فحسب ، بل إلى ذلك كله مجدداً
ثائراً ، وبانياً من أول المعمرين الذين وضعوا الأسس الأولى
لتلك اللغة الإنجليزية الحديثة التي تتناقلها الألسن في قارات العالم

الجنس والتي أصبحت بفضل ذبوع شهرة شكسبير لغة العالم الأولى .

بدأ شكسبير كتاباته بروايات للمسرح اعتمد فيها كل الاعتماد على مخلفات الشعراء والكتاب الذين سبقوه والتي كانت ولا تزال تراثاً خلفه الزمن للأجيال تنهل منه وتأخذ عنه فهي ملك مشاع بين الناس لا يعرف لها صاحب ولا تنسب الى شخص بعينه —
وحين بدأ شكسبير عمله المسرحي كانت لندن تعج بالكتاب والشعراء من أمثال كيد Kid ومارلو وجرين وجونسون وتشابمان ووكر وويستر وهيود وميدلتون وبيل وفورد وماسينجر وبومونت وفلنشر ، وهذا وحده أكبر دليل على تعلق الناس في هذا الزمان بالمسرح وغرامهم به — إذن دخل شكسبير إلى دنيا الكتابة والجو مهيب فالرغبة عند الناس متحفقة والتطلع والشغف موجودان ، وهذان عنصران من العناصر التي تجنب الكاتب كثيراً من العثار الذي يصاحب التجارب الأولى في حياته بل وتخط له طريق النجاح — هذا الحظ الموفور الذي هيا لشكسبير الظهور في عصر شغوف بالمسرح متبع لآثاره متطلع لأعماله قد وضع في يد شكسبير مدداً لا ينفد من الروايات والاقاصيص التاريخية

عكف عليها شكسبير دراسة وقراءة وأخرج منها في أيامه الاولى مجموعة أضفى عليها من روحه وحسه وزاد فيها بعض مقطوعات من تأليفه وإنتاجه وإن يكن من العسير في هذه الروايات الاولى التمييز بين ما هو مستعار وما هو مبتدع فقد كانت قوى شكسبير الخالقة وعبقريته الطاغية لما تكمل أسبابها ولما تأخذ نصيبها من الظهور — هذه الروايات التي وجد شكسبير مخطوطاتها في مسارح لندن كانت خليطا من قصص تروى Troy ومن مصرع يوليوس قيصر Julius Ceasar ومن مخلفات المؤرخ بلوتارخ Plutarch وتراثا كاملا لتاريخ انجلترا من أيام آرثر وبروت Arthur & Brut حتى أيام هنرى — وبعضها من المآسى والقصص الايطالى المرح وطرفا من أخبار الرحلات الاسبانية — هذا التراث تعاقبت عليه أيدي العباقرة والكتاب واستغل غير مرة واتخذ منه كثيرون قبل شكسبير مادة لفنهم وموضوعات لمسرحيات استمعت اليها الجماهير ووعت موضوعاتها ولكن اذا كانت المادة واحدة فليس الصقل واحدا ولا الاخراج متشابها بل يختلف كل الاختلاف حسب طبيعة الكاتب أو الشاعر كل يرى من زاويته الخاصة وكل يعرض من الناحية التي تهز مشاعره في القصة مثلهم في ذلك مثل المشالين

تتحد مادة فنههم ولكن اثارهم مع ذلك تتعدد وتختلف وتعلو وتهبط
أو تسمو إلى حد الاعجاز وفق اليد المشككة ووفق الروح المسيطرة
ليس الحجر هو كل شيء وانما الفنان هو كل شيء، إن العين لتقع
على آلاف التماثيل كل يوم ولكن لا شيء منها يستهوى النظر أو
يستحق الدرس عل حين أن تمثال Venus آلهة الجمال لا يمل
الانسان من طول النظر اليه وكلما أمعن النظر فيه كلما تفتحت له
جوانب خفية من دقة الصنعة وجمال التصوير فاذا كان شكسبير قد
لقب بعصاه السحرية كل ما تركته الأجيال من تراث وشككه حسب
هواه واخرجه وفق مشيئته وزاد عليه من قلبه نورا ومن حسه
شعرا وشعورا فقد وفر ذلك للشاعر العظيم وقتا يصرفه في السمو
بخياله والتحليق في دنيا الفن الى آفاق مجهولة لم يصل اليها عقل
الانسان. لقد أتاح له هذا اليسر في الحصول على مواد قصصه فرصة
التفرغ للصنعة يضيف عليها من قواه الخارقة روحا تسمو بها إلى أعلى
عليين — لقد وجد شكسبير موضوعات شعبية حبيبة إلى نفوس
مواطنيه لا يملون السماع اليها يوما بعد يوم بل يسرفون في طلب المزيد
فشمر عن ساعد الجد والقي بنفسه في هذا الخضم فاستطاعت عينه
البصيرة أن تخرج أصدافا تبهر العيون ثم لم يلبث أن اتقن الغوص

فأخرج للناس لآلى بهرتهم وملكت عليهم عقولهم ومهما يكن
من شيء فإن استخدام شكسبير لهذه المواد التى وجدها بين يديه
لا يقلل من عبقريته ولا يطعن فى قدرته على الخلق والابداع —
فليست العبقرية كما نفهمها خلق شيء من لاشيء أو ابداع على غير
مثال وانما العبقرية فى الاحاطة بكل شيء والتأمل العميق والغوص
على الاسرار التى تخفى على عيون العامة وغير الموهوبين من البشر
والحساسية المرفهة لكل ما يدور أو يحول وترك العالم يسير
طريقه ويؤدى واجبه . وليس بدعا أن يأخذ شكسبير عن سبقه
ولا أن يستغل تجارب السابقين فما من عبقرى ممن نعرف أو
لا نعرف فى أى فرع أو منحى من مناحى الحياة إلا وقد أفاد من
دورة الحياة التى سبقته ونهل من تجارب الأيام التى تقدمته ثم
أوسع كل ذلك دراسة وزاد عليه ماوضحه أو أضاف اليه ما دفعه
قدما نحو غايات بعيدة — وهكذا كان شكسبير يأخذ ممن سبقوه
ويستعير ممن عاصروه ثم يشكل بروحه وقلبه من هذه العصاراة
صوراً لا عهد للناس بها ، صوراً رائعة أخاذة تفتن الناس وتحيرهم
فى إدراك مكنونها . . . ان قوة شكسبير وقدرته على الاحاطة
لتبدو فى أروع مظاهرها إذا نحن تتبعنا نموها السريع فى كتاباته

مرتبة ترتيبا زمنيا حسب وقت ظهورها فان نحن وجدنا في «هنرى السادس» الشاعر ينقل آلاف السطور من غيره نقلا كاملا ثم لا يكتب هو نفسه إلا مئات السطور ليدل على جهده فانتنا لا نلبث أن نراه فى فورة نشاطه وقوة انتاجه فى «هملت» وفى «عطيل» وفى «لير» وفى «ماكبث» فما من فكرة إلا له وما من صورة إلا من ابداعه ، انه يكتب آلاف السطور فى قوة دافعة فياضة لا تقف عند حد ، انه يسمو ويرتفع ويخلد ويملك زمام أمره ويتحكم فى قوى الطبيعة ماظهر منها وما بطن

ولعل من حسن حظ شكسبير ان ظهر فى عصر أكثرية الناس فيه أميون لا يقرأون ولا يكتبون مما يسر له سبيل النقل من غير تحفظ ومما أعانه على أن يستغل تراث الاجيال الماضية وتجارب المعاصرين دون أن يتعرض لما يتعرض له المناقلون فى هذه الأيام من عنت وأرهاق فالناس تسمع وقل أن تعى والعامه يطربون وندر أن يذكروا وهكذا استطاع شكسبير أن يتجاوز أيامه الأولى فى سلام ..

الفصل الخامس

عبقرية الفنان

الحياة في مظاهرها المتعددة والحياة في صورها المتفاوتة والحياة بآلامها وآمالها والحياة بنوازعها ومثلها والحياة بشهواتها وفضائلها هي مادة الفنان وأداة الفن فالطبيعة هي وحدها التي تمنح الفنان موضوعه وتيسر له مواد صناعته ولكن عبقرية الفنان هي وحدها التي تستطيع أن تتخير من بين هذه العناصر أصلحها لإداء رسالته والعبقرية وحدها هي التي تؤلف من هذه المواد المتفاوتة المتناثرة وحدة لها مقوماتها ولها جمالها وجلالها ، العبقرية وحدها هي التي تنفخ في هذه الصور التي خلقتها وشكلتها روحا تجذب بها القلوب وتهبها التأثير والسحر — وتنفحها البقاء والخلود — فان تكن

الطبيعة ميسرة ملء العين والسمع لكل إنسان وإن تكن الحياة تجري في أعنتها بمواكبها الحافلة واحداها القاتلة مارة بالناس جميعا يشهد بها الكبير والصغير ويدوق مرها وحلوها الغنى والفقر — فان العبقرية ليست في تناول كل فرد ولاهى مما يسهل الوصول اليه إنما العبقرية نفحة علوية تصيب الناس بقدر فتمنحهم جلاء في البصيرة وقوة في البصر ونفاذا إلى بواطن الامور وإحساسا مرهفا وأذنا صاغية وقلبا واعيا ونفسا عالية — العبقرية أى كان لونها نبوة أو شاعرية أو خطابة أو قيادة أو زعامة هى مزاج رفيع من كل هذه الصفات على حدة ولكنها تنطق ببلغة العصر الذى تعيش فيه وتبدو فى الصورة التى تدفعها اليها مقومات الحياة التى ولدت فيها وعاشت فى أكنافها — إن كل مقومات العبقرية هى قلب كبير وبصيرة واعية نافذة متعمقة فى الصميم — ومتى اختارت الأقدار رجلها المنشود ووهبته النفاذ والتعمق إلى أعماق الوجود وأطلعته على سر الكون الغامض ذلك الكون الذى يشترك الناس جميعاً فى تأمل مظاهره وإن لم يعوا أو يدركوا ما استقر خلف هذه المظاهر من أسرار هى عصارة الحياة وعنصر الوجود فالعباقره فى كل زمان ومكان أناس توحى اليهم

الأقدار بأسرار الوجود فينفذون بأبصارهم الثاقبة إلى أعماق الحياة فيجلون لنا ما غمض ويكشفون لنا ما خفي عسى نستطيع أن نفهم الحياة ونذكرها ونقدرها — إن مهمة العباقرة هي الكشف عن أسرار الكون وعدتهم في ذلك الإيمان والاخلاص العميق، انهم يختارون من الناس ويعيشون وسط الناس ولكن بعيون فاحصة وعقول مدركة وقلوب واعية

لقد عاش شكسبير في وسط من الحياة المتدفقة المتجددة وطعم من الوجود ألوانه المتفاوتة المتباعدة وكانت عين الأقدار قد وقعت عليه ليكون رسولها المعبر عن وحيها الناطق بآيات الوجود الكاشف عن أسرارها في ذلك الزمان فوهبته عيناً نافذة وبصيرة كاشفة وقلبا حافظا — جمع بهم تجارب وصورا ظلت كامنة في نفسه حتى اتقدت فيه شعلة العبقرية فخرجت شعراً وشعوراً ألهب مشاعر الناس وملك عليهم أنفاسهم جيلا بعد جيل.

لقد تفتقت ذهنية شكسبير عن شاعرية جبارة وبزت قواه العقلية وبصيرته كل عقل وكل بصيرة سبقته إلى هذا الوجود — ونظرة واحدة إلى آثاره التي طوق بها جيد الزمن تنبينا عن مبلغ كمال هذا الرجل ونضوجه، وإن قوى شكسبير لتبدو في قدرته على

التصوير وفي ادراكه الفطرى للظروف والملابسات التى تحيط به وفي
تكييفه لما بين يديه من وسائل ومواد للعمل وفي حسن ربطه بين
هذه جميعها وتنسيقها تنسيقا تاما يلائم مع قواه واستعداده ، وليست
هذه القدرة وليدة النظرة العابرة ولكنها وليدة النظرة المتأملّة
الفاحصة التى تشع ضوءا يكشف عن خبيثة كل ما حوله بل هى
وليدة العقل الراجح المتزن والبصيرة القوية الكاشفة — إن من
العسير علينا ان ندرك كيف استطاع شكسبير أن يخرج من هذه
المواد التى وقعت عليها عينه هذه الصور الخلاقة التى تفيض بالحياة
الكاملة إلا إذا سايرنا قوة الخلق عنده من منبتها حتى متنهاها
ودرسنا ما وراء كل شخصية من شخصياته من دوافع حملته على
اختيارها وعلى تصويرها على هذا الوضع بخصوصه دون أى
وضع آخر ودققنا فى كل ظرف وأرجعنا كل علة إلى معلولها وعلى
الجملة اننا لن نستطيع هذا على وجه التحديد ما لم تكن لنا بصيرة
فاحصة وقوة خارقة تنفذ إلى ما نفذ اليه وتقدر ما قدره وتدرك
ما ادركه وتيك معجزة أخرى من معجزات هذا الفنان فان الناس
لتختلف منذ ثلاثة قرون فى تحليل شخصياته وأن الناس لتذهب
مذاهب شتى فى الكشف عن سره الذى أودعه هذه الشخصيات

الخالدة التي صورها ونفذ بتصويرها إلى صميم الحياة والواقع —
 وفي الحق أن شكسبير عظيم لأنه استطاع أن يصور وأن يكشف
 النفس الانسانية بما تنطوى عليه من نوازع وغرائز في غير تكلف
 ولا مداورة... فالنفس الانسانية عجينة رخوة في يده يشكلها
 كيفما شاء ليبدى بها ما شاء من نقائص وليكشف فيها عماء شاء
 من محاسن وهو في تصويره وإبداعه قد لا ينسج على منوال غيره
 وإنما سباق يرود الوعر ويكشف المخبأ ويترك الناس من ورائه
 حيارى لا يستطيعون أن يفروا فريه، فهو إذ ينظر إلى الشيء لا يبدى
 لك مظهر من قسماته ولا ما بدا من علاماته وإنما ينظر إليه نظرة
 تكشف عن أعماقه وتصل إلى مكنون قلبه وأن النفس لتنصر
 تحت بريق نظراته فإذا هي في يده سر مباح وعالم مطروق لا خفاء
 فيه ومن هنا كان تصويره كاملاً واخراجه لا مغمز فيه — وليست
 قوة شكسبير قوة فحص وإدراك فحسب بل هي قوة تعبير وإفصاح
 وما حسن التعبير وقوته إلا أثراً من آثار الفهم الصحيح
 والاحاطة الصادقة والنظرة المتعمقة فنحن لا نستطيع أن نعبر عن
 الشيء أو نصفه بكلام له وزنه وقدره ما لم نكن محيطين بهذا الشيء
 نافذين إلى أعماقه — وشكسبير له من النفاذ والتعمق
 ما يعينه على الإدراك الكامل والوصف الصحيح بل وما يعينه على

التعبير عما يدرك وعما يحس في أقوى عبارة وابلغ بيان وموضع العجب في هذه النفس الخالصة الحساسة ليس في الاحاطة ولا في التعبير ولكن في قدرتها على أمساك كل ماحولها من المشاهد وعكس كل ماحولها من الصور — هي نفس قوية عجيبة تطبع كل ماتشاهد وتلتقط مختلف الصور ومختلف الرجال ، في أعماقها قافلة متنوعة من الرجال فمن فلسطاف إلى عطيل إلى جولميت إلى كوريولانس تخرجهم بين الحين والحين إلى عالم الحياة الخالدة مرة أخرى في أكمل بزة وأقوى حيوية .

وإن يكن شكسبير قد دانت له مقاليد الكلام وخضعت لسيطرته تعابير وصوره حتى اضحى سرها في يده يصرفه كيف شاء ويتلاعب به كيفما شاء ، وإن يكن نمو هذه السيادة الغالبة قد بدا واضحا في توأليفه وضوحا حير اللب فثمت سيادة أخرى تطالعنا ونحن ننتقل من صفحة إلى صفحة من حياة هذا الرجل الفنان سيادة من نوع جديد لا عهد للناس بها ولا عهد لتاريخ الآداب بمكنونها — سيادة محيرة؛ كل تحايل مهما سما لا يمكن أن يكشف عن صدق مدلولها ولكننا نستطيع أن نميزها في قوة وغلبة كلما تقدمنا في قراءة شكسبير وانتقلنا من مسرحية إلى أخرى من رواياته الفذة

إن للمسرحية تاريخاً قديماً سبق وجوده كثيراً من معارفنا فهي ترجع
إلى عهد الإغريق والرومان وقد شاهدت في حياتها الطويلة فترات
من المجد والعظمة وورى فيها زندها وارتفع صوتها وإن التاريخ ما يزال
يذكر روائع «إيسكلس» و «ارستوفان» وإن الآداب لتحفظ من
قديم روائع خالدة من الفن الإغريق والرومانى وإن المسرح
ليدين لهذه الروائع بكثير من الآثار التى بقيت على الأيام نوراً
يهدى المؤلفين ويعينهم على السير قدماً فى مضمار هذا الفن الخالد
وعصر الیصابات وإن يكن يدين بنهضته المسرحية لروائع الفن
الإغريقى فإن أكثر الفضل فى تقدمه يرجع إلى آثار سنيكا
Seneca الرومانى التراجيدية فقد كان الناس على هذا العهد كافرين
على دراسته ومحاماته ، ولعلنا إن وضعنا المنوال الذى كانت تنسج
عليه هذه الاغريقيات والرومانيات من حيث التصوير ومن حيث
الشخوص استطعنا أن نعطيك مفتاح السر لهذه السيادة الجديدة
التي أحسنناها ونحن نقرأ شكسبير تلك السيادة الغربية التي طوعت
له الحياة وأدانت له النفس الانسانية فاستغلها أبدع استغلال
وكشف عن مكنونها وأفصح عن خبيثتها .

لقد كانت شخوص روايات سنيكا شخوصاً مسرحية ،

شخصاً يستلزمها المقام وتدعو إليها الحاجة ، شخصاً توضع لتعبر عن أغراض معينة ، وتنطق برسالات خاصة ، قد تختلف بين السخرية والألم ، أو بين الإضحك والإيلام — شخصاً لا حياة لها في ذاتها ينفخ فيها الكاتب آراءه ويتحدث بلسانها — هي موجودة على المسرح لأن الكاتب أراد لها الوجود تتحرك وفق مشيئة الكاتب فهي لا أكثر من دمي تقول وتتحرك وأغتها في يد الكاتب فإذا ما انقضت المسرحية لم تعد شيئاً مذكوراً .

كان هذا هو المنوال الذي نسجت عليه المسرحيات الإغريقية واللاتينية وعنه أخذ الكتاب الانجليز الذين سبقوا ولیم شكسبير أو عاصروه — كانت شخصاً مسرحياتهم شخصاً مثالية أنموذجية Type Characters تعبر عما يراد لها التعبير عنه من العواطف وتبرز ما يود الكاتب إبرازه من المعاني ، أما هي في ذاتها فلا وجود لها ، ولا حياة مستقلة عن جو المسرحية أو الرواية على هذا الأساس الكلاسيكي كتب مارلو ، وكتب بن جونسون ، وكتب شكسبير على أول عهده بالكتابة فكانت شخصاً ولیم شكسبير في الفترة الأولى من حياته الفنية دمي تتحرك وفق مشيئته متمصصة صفة من الصفات أو قوة من قوى الخير أو الشر التي

تعمل في توجيه الطبيعة الانسانية ولذلك كان من العسير تحليلها أو الغوص وراء مدلولها فهي لم تكن شيئاً حياً يمكن أن يحلل أو يتتبع في مظاهره المتفاوتة لنصل منه إلى تأليف صورة كاملة له — وإذا كان وليم شكسبير قد راض نفسه في الأيام الأولى من حياته الفنية على التقليد والمحاكاة فهو حين تفتقت عبقريته وتفتحت مناحي عظمته لم يعد يرتضى لنفسه هذا الثوب الخلق بل نضاه عنه وأقبل يتشبع كل يوم بثوب جديد يبهر الأنظار ثوب من نسيج العبقرية الفذة.

✕ ثار وليم شكسبير على تقاليد كتاب عصره وعلى تقاليد من سبقوه من الإغريق والرومان حين أبرز على المسرح بين الشخصيات المثالية الأنموذجية التي عهدتها الناس شخصية متواضعة ولكنها فياضة بالحياة تشعرك لأول مرة أنك تسمع صوتاً من صميم الوجود الحي وتشعرك بأن عينك إنما تقع على عين حية مبصرة تبادلك النظرات ، وهكذا تنقلب دنيا المسرح الخيالية المثالية في لحظات إلى عالم الحقيقة ودنيا الواقع . . . هذه الشخصيات الحية النابضة التي عنى شكسبير بإبرازها على المسرح لم تكن شخصيات لها أهميتها في المسرحية أو القصة ، وإنما شخصيات ثانوية تظهر

في منظر أو منظرين من الرواية ولكن مهما يكن من شيء فان هذه الشخصيات على تفاهة أدوارها كانت نواة لثورة شاملة في طريقة العرض والأداء، وأول ما نلاحظ ظهور هذه الشخصيات الجديدة في رواية «سيدان من فيرونا» فسييد Speed ولونس Launce كانا ثمرتين باكرتين لغرس نبقت دعائمه وقويت وأثمرت بعد ذلك مئات الثمرات ويأتى بعد هذين شخصية المربية في رواية «روميو وجولييت» فهي تقفز إلى المسرح في حيوية فياضة ممتلئة حياة نشطة متدافعة كالبحر الزاخر.

تلك كانت أولى تجارب شكسبير في إدماج الحياة الواقعية في دنيا المسرح وهي تجربة تلتها تجارب، إذ حياة شكسبير في المسرح سلسلة متصلة من التجارب لم تخمد جذوتها إلا حين انتهى ولیم من أداء رسالته وعكف على حياة الهدوء على ضفاف نهر الأفون... ونجاح شكسبير ولا ريب في هذه التجارب الأولى واستجابة الشعب لها وحبها إياها قد حفزه على السير بها قدما حتى بلغ القمة في «هاملت»، وبعد أن كانت الحياة الواقعة تلمع في لمحات قصيرة وبعد أن كانت الشخصيات الحية شخوصاً ثانوية فاض نور الحياة بدمها ولحمها على المسرح وملاً فراغ الرواية

بأكملها وقويت الشخوص الحية وقهرت من الظل الى الضوء وعلى
مر الأيام نحت الشخوص المثالية ونأت بها عن الضوء الى الظل
وبعد أن كانت روايات شكسبير الأولى مسرحاً تتلاعب فيه
الشخصيات المثالية بحيث لا تستطيع التمييز بين شخص وشخص
أو بين محب ومحب كما هو الحال في رواية « حلم منتصف ليلة صيف »
وبعد أن كانت شخصيات بوتوم وكوبنس وسنيج شخصيات متخفية
نرى في رواية « تاجر البندقية » مثلاً وهي رواية متأخرة عن العهد
الأول أن الشخوص الهامة أصبحت تحس وتتحرك ويفيض دم
الحياة في شرايينها ، فأنتونيو وشايلوك وبورشيا شخصيات حية
تتكلم كما نتكلم وتعبر عن نفسها تعبيراً واقعياً لا شبهة فيه ، وأكثر
من ذلك أننا أصبحنا لا ننكر على هذه الشخصيات تصرفاتها بل
قبلناها وارتضينا أعمالها وأقوالها لأنها مقتطفة من الحياة الحية
النابضة ، وهكذا نفخ شكسبير في شخوصه روح الحياة حتى
بلغ بها المدى الذي لا يجارى في عصر ازدهاره ، عصر السكالم
الخلق والتصوير عنده ، عصر النضوج السكالم عصر الترا جيديات
الخالدة فأصبحنا لا نرى على المسرح إلا أشخاصاً يعيشون بأنفسهم
ويتكلمون بضمائرهم ، أما النماذج وأما المثل فقد اختفت وأرخت

عليها ذيل النسيان ، أصبحنا نرى « لير » و « همليت » و « عطيل »
و « ما كبت » و « كليوبترا » و « أنطوني » ونحس في صيحاتهم
وفي حركاتهم نبضات الحياة وفورات الدم وتردد الأنفاس .
ان قدرة شكسبير على الخلق والابداع لا تبدو في فيض الحياة
الذى غمر به شخصياته المسرحية ولا في تعدد هذه الشخصيات
الحية ولا في أهمية الأدوار التى تلعبها على المسرح قدر بروزها في
عمق هذه الشخصيات وتعقد مناحى تفكيرها واتساع أفق نظراتها
الى الوجود والى الحياة المتشعبة إن مسرح شكسبير لم يعد يغص
بالدمى المتحركة بل أضحت جزءا من الحياة الواقعة برسم احساساتها
ويعبر عن نوازعها وغرائزها وينطق بآلامها وآمالها ، نرى فى كل
شخص يذرع المسرح حياة كاملة بأسرارها وغيوبها تتفتح تحت
أنوار المسرح الكاشفه كما تتفتح الزهرة تحت ضوء الشمس الدافئة
— ان شكسبير العبقري قد أحدث ثورة فى تقليد الفن الكلاسيكى
حين ربط المسرح بالحياة الواقعة ، وحين اتخذ المسرحية سبيلا
لتجليل النفس الانسانية تحليلا صادقا كاملا — وهو فى ثورته
هذه لم يركن الى وحي الخيال وحده ، بل اقتطع صوره وقصصه
من صميم الحياة التى نعيش فيها ومن قلب الحياة التى عاصرت

وسر العبقرية فيه انه حين يعرض الحياة للناس على أيامه يعرضها من زاوية انسانية تشترك فيها العصور مهما تباعدت وتجتمع عندها الانسانية مهما تفاوتت أيامها .

لقد كانت السوداوية والمزاج الحاد ضربا من ضروب الفلسفة التي سادت حياة الشبان في أيامه فعرض لها شكسبير في رواية « كما تحبها » ساخر آحين صور « جا كوين » شابا مكتئبا ينفر من الناس ويهرب من المجتمعات .

روزالند : يقولون انك شاب مكتئب تضيق بالحياة
جا كوين : كذلك ، فانا أحب الاكتئاب ولا أحب المرح
روزالند : ان الإغراق في المرح والإغراق في الاكتئاب
سيان ، يجلبان على صاحبهما لوم الناس ويعرضانه لألوان من
السخرية قد لا يتعرض لها السكير العرييد
جا كوين : ولكن لم ؟ اليس خيراً أن يكتئب الانسان
ويعتصم بالصمت من شرور الناس .

روزالند : وما فضله على الجماد اذن

وهكذا نرى لمحات من حياة الناس على عهد شكسبير تبدو في
ثنايا مسرحياته فتشعرنا أن الرجل كان يعيش ويحس وأنه كان

لعصره قبل أن يكون لسائر العصور ، هو حتى محس مدرك لما حوله ، ولكنه يتميز عن الناس بأن إدراكه إدراك إنسانى يتناول العلل من جانبها العام ، ويلبس الأدواء من نواحيها المشتركة ، وهذا سر خلوده ومفتاح عبقريته .

وشكسبير الذى سخر من جا كويز السوداوى المكتتب ، عاد فرأى فى هذا الاكتئاب منفذا من الضيق ، ومفرا من ، الشدة وملجأ من عنت الأيام وصروف الزمان ، فهو يرتضى هذه الحياة لهملت ويبلغ فى تصويرها وتصويره كمالا لا عهد للادب به من قبل هذا الجبار المتعمق فى حنايا الصدور النافذ إلى أعماق القلوب

خلق شكسبير شخصيات متعددة حفل بهم المسرح ، وحفلت بهم الحياة ولكنه فى خلقه وابتداعه كان جبارا قادرا استطاع أن يميز بين مميزات عبقريته ، وأن يطبع كل شخصية من شخصياته بطابع خاص يميزها عن غيرها ، بل زاد على ذلك انه استطاع أن ينفخ فى بعض شخصياته روح العبقرية ، فالى جانب الرجال العاديين الذين يحيمون كما نحيا ، ويتنفسون كما نتنفس ، أظهر فلاسفة وعباقرة ، فاشخصية فلستاف هذه الشخصية المرحية شخصية عبقرية نافذة إلى أعماق المعرفة كاشفة عن اسرار الوجود وكذلك شخصية هاملت

وشخصية كليوباتره — ولشكسبير الى كل هذا ميزة مفردة هي قدرته على تصوير ازدهار الانسانية وسموها الى درجات الكمال واندحارها وانهارها الى درجات الحضيض .. هو يساير الانسانية الى كمالها ، ثم لا يلبث أن يكشف عن العوامل الخفية التي لا تفتأ تعمل لتقويض دعائمها وتحطيمها ، ويصور هذه العوامل تصويراً بارعاً لا يدع مجالاً للريب في قوة فعلها — ويرينا هذه العوامل وهي تعمل في نفس العظيم وكيف تسخر من عظمتها وتتركه حطاماً بالياً نهياً للوساوس والأوهام ، تمر عيشه ، وتملك عليه أمره ، فيخر صريعاً تحت ضرباتها القاسية لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا — هذا هو عطيل بطل مغوار ، وقائد محنك ، ترى فيه ديدمونة جمال الروح ، وقوة العقل فتعشقه على سواده وتفضله على اترابه ، تغرب معه لتوفر له سعادة كاملة ، وتعينه على مرارة الغربة وقساوة الحروب ، هذا المدره النافذ البصيرة قد سلط عليه شكسبير عاملاً من تلك العوامل الخفية التي تهد كيان البشر وتطوح بهم إلى أعوار بحقيقة ، يسلط عليه الغيرة يو قد نارها ويشعل أوراها في قلبه « اياجو » الدساس بمعسول الكلم حيناً ، وبالاشارات التي تفيض رقه حيناً آخر ، ولكنّها لا تخلو من الهمز واللمز — هذا المارد الجبار ذو العقل الراجح قد هدته الغيرة ، وأعمت بصره وبصيرته ، فتأجج اتون

الغضب في صدره ، واشتعلت نار الحقد بين جوانحه ، فقتل حبيته ؛
من ضحت بهنائها من أجله ؛ ومن اغتربت من ديارها في سبيله -
فلما أتى فعلته ، وتمين إفك صاحبه ؛ انهار كيانه ، وانهدت أركانه ،
وتحطم بنيانه ، وأصبح لاشيء بعد أن كان كل شيء . . لقد صرعت
الغيرة هذا الجبار ؛ ويالها من سلاح نافذ الطعنة .

أياجو — « حذار يا مولاي من الغيرة فهي ذلك الوحش
الضاري ذو العيون الخضراء الذي يسخر من فريسته ويشير
فيها كل يوم ضروبا من الشك ويلهو بشجوها المتزايد » .

لقد صور شكسبير مصرع البطولة في « ماكبث » وكشف لنا
عن خبيثة هذه النفس ، وكيف تطورت إلى نفس دموية بعد مقتل
« دنكان » . إنه الطمع ، وانه الجشع ، غلب على هذه النفس الانسانية
الهادئة ، فقلب أوضاعها ، وصم أذانها ، وأحال قلبها صخرآ لا يلين ،
فقتلت ضيفها بعد أن سكن إليها وأرتاح إلى صحبتها ، وأسلم إليها زمام
أمره — غدر وخيانة ما كانت لتصدر عن نفس هادئة مفكرة ،
ولكنها عوامل الطمع والأثرة غالبية غلبة ، قاتلة قتالة ، دفعت
« بماكبث » إلى الجريمة ؛ وهيات له وسائلها وحاطته بالمغريات وحفزته
بالدوافع ، ولم تدع له سبيلا لتدبر ولا طريقا لتراجع . . . الملك

الملك .. التاج التاج .. انها الفرصة الذهبية إن أفلتت أفلت الزمام إلى الأبد، وقد أفلت زمام الرجل من يده فأنى أمر أنكرأ مدفوعا بعوامل الشر مسيرا بقوى الباطل — لقد كشف لنا شكسبير هذا الجحيم الذى كانت تتدافع فيه نفس « ما كيث » بين الإحجام والإقدام حتى اندفعت فاحترقت .

و« لير » صورة اخرى من البطولة المنهارة ، حطمتها عوامل الكبرياء والصلف وطغى عليها الاعتزاز والغرور حتى تبدد شملها وضاع ملكها، فثارت على نفسها ثورة هدامة، انتهت بها إلى الجنون ثم شملتها هداة منقذة ، فقرت نفسها فى إستسلام وخضوع .

لقد كشف شكسبير فى مقدرة عن هذه النوازع الخفية التى تحبك شبا كها يد الأقدار، لتوقع فى حبالها الابطال المغاوير فإذا هم فرائس تصطرع وتضطرب؛ ثم لا تلبث أن تنهار ويشهد الناس مصرعهم الأخير فى سكون ووجوم

هذه ناحية من عظمة شكسبير، وثمت أخرى أشد وأقوى تلك هى ميزة لشخصياته التى يبدعها ، ينفرد بها عن الذين لفوا لفه ، وحذوا حذوه، فشخصيات شكسبير شخصيات غامضة، لانستطيع أن نكشف عن أهدافها، أو أن نحدد أغراضها، هى تتصرف كما

يتصرف الناس في الحياة الواقعة، تتصرف بلا حد، وتعمل بلا توجيه،
فكما أن الانسان في حياته العامة، وتصرفاته لا يمكن أن يخضع لنظام
معين، أو يهدف نحو غاية محددة، كذلك شخصيات شكسبير تعجب
وتغرب، وتتصرف تصرفات تدهش السامع والزائر، وتختلف ما
يظن، وتأتي على غير ما يتوقع، فهي شخصيات غامضة لا يمكن بسطها
أو تحليلها أو التنبؤ عما يمكن أن تقول أو تفعل. وشكسبير في هذا
نسيج وحده، فإن كل من نعرف من المؤلفين المسرحيين أو القصصيين
يرسمون لنا في كلمات صورة إن لم تكن كاملة فهي موضحة معبرة
عن شخصيات قصصهم ورواياتهم، نستطيع بها أن نعرف خطواتهم
التالية، وأن ندرك أحاديثهم، وأن تنبئنا عن مصائرهم وأعمالهم، لقد
خلق شكسبير لنا شخصيات فذة: «كلمات» و«فليستاف» و«كليوبترا»،
شخصيات لو أنها عاشت معنا طول العمر لأدهشنا، وحيرونا وأدخلت
على نفوسنا السرور، ولطالعتنا كل يوم بجديد وافتحت أمامنا
مجالا لا ينتهي للبحث والجدل في كنهها ومرماها — ولعل عجزنا
عن سبر غور هذه الشخصيات، وعن كشف ما غمض منها وما
انطوت عليه أحشاؤها من مكنون الصفات مما يزيد إيماننا في
حيويتها وإنسانيتها ولعل أعجب هذه المخلوقات التي وهبها لنا

شكسبير تلك الشخصية الغامضة المحيرة التي ظلت ، وستظل لغزا لا يحل ، شخصية « هاملت » فهي شخصية معقدة لما تفهم بعد على حقيقتها ، ويخيل لنا أن هملت نفسه لم يصل إلى فهم ما تنطوى عليه أحشائه ، وهو بهذا التعقيد المحير أشد حيوية ، وأقوى إنسانية من أى إنسان حي عاش أو سيعيش على ظهر البسيطة - ولو أن شكسبير قضى حين كتب « هملت » لقلنا أنه وصل فى سن السابعة والثلاثين إلى قمة الشعاعية ، وأوج العظمة الدراماتيكية التي لا يمكن لإنسان مهما أوتى من نبوغ أن يصل إلى مستواها ، ولكن شكسبير صانع المعجزات ، قد جاوز هذا الحد وأربى على هذه الغاية ، حين خلق شخصيات عظيم ولير ومكبث وكوريولانس ، فتلك شخصيات عظمى رفيعة المستوى ، ونظرة واحدة من هذا الارتفاع الشاهق الذى سما إليه فن شكسبير بمسرحياته الأخير ذ إلى خطوات شكسبير الأولى ترينا عظم الهوة السحيقة التي بيننا وبين كتاباته الأولى ، وتوقفنا على المدى الشاسع الذى قطعناه فى عشرين سنة ، منذ بدا ولیم شكسبير فى أفق مسارح لندن حتى انتهى إلى مآسيه العظيمة ، انه مدى تتقطع أنفاس وأنفاس مئات السنين دون أن تستطيع

ادراك نصفه بله غايته .

ولم يكن ابداع شكسبير قاصرا على دنيا الواقع يستمد منها مادة فنه ، ويخلق من وحيها أشخاص مسرحياته ، بل جاوز حد الواقع الى حد الخيال، واستغل معارف عصره عن الجنيات والمردة وابدع شخصيات خيالية، نفخ فيها من حيويته ، وتلاعب بها على المسرح ، فكان أول من استخدم الجنيات في رواياته . وأول من خلق هذه الدنيا الجديدة ، دنيا الجنيات والمردة ، واضفى عليها حيوية قربتها من الشخصيات الحية وانطقها بالسحر الحلال — استخدم شكسبير هذه الأرواح الخفية العلوية ، لترقص وتطرب في « حلم منتصف ليلة صيف » ولكنه لم يلبث ان سماها ، وأتى بالمعجز المتمنع ، فخلق شخصيتي أرييل Ariel وكاليبان Caliban هاتين الشخصيتين العجيبتين العلويتين اللتين وان كانتا غير بشريتين ، فقد كان لهما سحر وأثر ، ملك اللب ، وكاد يوصلهما الى درجة البشرية . لقد كان الفن الى ما قبل عهد شكسبير ، قاصرا على محاكاة الطبيعة ، وتقليدها ووصف ما فيها ، أو ما يمكن أن يكون فيها ، ولكن شكسبير حينما خلق شخصية كاليبان لم يستوح الطبيعة ، ولم يقلدها ،

وانما استوحى الخيال، وخلق من أشياء خيالية بحثة شخصية حية،
تجول وتتحرك، وتتكلم كما يتكلم الناس، وشكسبير بهذا أول من
لفت النظر الى أن الفنان لا يجب أن يتقيد بالتقليد، بل يجب أن
يترك لعبقريته العنان لتخلق شخصيات جديدة وعوالم جديدة
تملأها بالحياة والحركة.

لقد استطاع شكسبير في هذه الفترة القصيرة من حياته الفنية أن
يحدث أموراً في دنيا الفن، وعالم المسرح ظلت موضع إعجاب الفنانين
ومصدر حيرة لهم — ونحن مهما أسرفنا في وصف تجديد شكسبير
فلن نصل بحال إلى تعداد واف لكل ما عمل وكل ما أخرج للناس
من عجائب... لأن كان شكسبير أول من نفخ الحياة في صور
شخصياته، ورسمها لنا وهي تحس وتعمل، بل وهي تقول وتتحرك،
فقد كان أول من ميز لنا بين الشخصوص المثالية وبين الشخصيات
الحية، فالشخصوص المثالية تنتهى بانتهاء المسرحية على حين
الشخصيات الحية تظل في ذاكرتنا وفي خيالنا نذكرها كما نذكر
أصدقاءنا الاعزاء، ولقد حق لدكتور جونسون Johnson بعد هذا
أن يقول « إن شكسبير لم يكن مقلدا وإنما مبتدعا استن سنا جري
على مثالها الكتاب من بعده » وليس في هذا من عجب فان شكسبير

خلق لفنه دنيا بأسرها، متعددة الاجواء، مختلفة الأشخاص، متلونة المظاهر، تفيض بالحياة الخالصة، وهو في تنوعه وشموله لكل ما يمكن أن يخطر على البال وجوده بين البشر من الشخصيات، قد بز الحقيقة الواقعة، وأضحت الدنيا العريضة تكاد تكون خاوية بالنسبة الى دنياه العامة بكل حي مهما تنوع قبيله، واختلفت صفاته.

ان هذه الدنيا من المخلوقات التي أبدعتها يراعة شكسبير وصاغتها عبقريته من معدن الوجود، ونفخ فيها من روحه ما ملأها حياة وحركة لا كبر دليل على ان الرجل قد كشف عن سر الوجود، ووصل الى اعماق المعرفة فدانت له القدرة على الخلق والابداع... وما دامت بصيرته قد تكشف عنها الحجاب، ووهبته القدرة اكسير الحياة يملأ به الجسوم التي تعرض له فيدفع الدم حارا في شرايينها، والحياة نابضة في عروقها، فلا غرو ان نجد بين الفينة والفينة، أن شخصية من الشخصيات التي يقرأ عنها شكسبير في احدى الروايات القديمة قد استهوته، وملكته عليه حسه فخلع عليها من الألوان والاضواء ما جلاها وأظهرها في ثوب قشيب، وانك لتشعر بنهر الحياة المتدافع في هذه النفس العلوية ينساب

رويدا رويدا بين صفحات مسرحياته، حتى اذا اكتملت له القوة، اندفع تياره، وطنى بحيويته على كل شىء — لقد بدأ شكسبير يطالع الجمهور بحيويته، من خلال شخصيات ثانوية، يدفعها الى المسرح، فتلمح كالبرق السارى يضىء ظلام الليل، حتى اذا ما اعجب الناس بهذا السنا، وطلبوا منه المزيد، اطال فى مكث شخصياته الحية، وعدد اعمالها، وما زال بها حتى اكتسحت الشخصيات المثالية، ونقلتها من الصدر الى الجانب، وانتهى بأن نحائها عن الوجود المسرحى، واسدل عليها ذيل النسيان . . وما دمنا قد المعنا الى هذا التطور فى لباس شخصياته ثوب الحياة القشيب، فمن الحق علينا ان نلاحظ انه جنبا الى جنب هذا التطور، بل ونتيجة له، تطورت موضوعات مسرحيات شكسبير، ووضحت مسرحيات اشخاص، تدور حول حياتهم، بعد ان كانت مسرحيات ظروف وملابسات وحوادث، وتحولت الملهاة عنده من ملهاة تقوم على الخلط فى الشخصيات، والتضارب فى معرفتها، مما يحدث ارتباكا يثير الضحك والسخرية، كما هو الحال فى كوميديا الاخطاء Comedy of Errors الى ملهاة تعتمد على خداع النفس، وانقلبت المأساة من مأساة ظروف وملابسات، الى « مأساة » عنصرها الرئيسى، تنازع الشخصيات

وتصادمها واحتكاك القوى الحيوية في الرجال ، كما هو الحال في رواية عطيل مثلا فان الصراع بين أياجو الدساس وعطيل الشجاع النبيل، قد انتهى بهما الى الدمار .. وكذلك التصادم بين تريوليس Triolus وكرسيديا، وبين أنطوني وكليوباترا، واحتكاك شخصياتهم هو الذى ادى بنا الى الفاجعة — ولم يعد تصادم الشخصيات وحده هو موضوع المأسى وسبيلها ، بل تصادم البطل بعوامل الوجود ومصاعب الحياة الخارجية ، فروميو، وريتشارد الثانى، وريتشارد الثالث لم يضطروا مع احد، ولكن مجاهدتهم للعوامل الخارجية هى التى صرعتهم بل واكثر من هذا، فان المأساة بعد ان تقدم بها الزمن، واضحت موضوعاتها طيبة فى يده انتقلت الى مرحلة جديدة، سرها اضطراع البطل مع نفسه ومحاربتها، مما ينتهى به الى الوبال، فبروتاس Brutus فى رواية « يوليوس قيصر » كان مع نفسه فى حرب مستعرة الاتون، فهو مقسم بين عاطفتين، عاطفة المحبة لقيصر والولاء له، وعاطفة الاخلاص للوطن ، والتضحية بكل شئ فى هذا السبيل ولو جدع أنف قيصر، وطاحت هامته ، وظلت هذه العوامل الدفينة فى نفسه، تحترب حتى قضت عليه . و« هاملت » كان محسا غاية الحس، مدركا كل الادراك للقوى المتفاوتة التى تتشاحن فى فؤاده

وتتضارب في عقله ، حتى خبلته وانتهت به الى الدمار وكذلك «لير»
«وما كبث» و«كوريولانس» ، ما زالوا يجاهدون طبيعتهم ، ويحاربون
سليقتهم حتى انتهى بهم الأمر إما إلى الجنون ، وإما إلى الموت .

عالج شكسبير هذه النواحي النفسية بحذق ودراية وأظهرنا على
جوانب خافية من النفس الانسانية واتخذ سبيله الى ذلك الحوار
حيناً بين شخصيتين ، ليرينا كيف تبدأ العقد النفسية وكيف
تستببط مادتها من أتفه الاحاديث ، وكيف تتخذ من كلمة عارضة
أساساً لحكم خطير ، وما تزال تتغذى على السمكات تتناثر ، وعلى
الحركات والسمكات حتى يتعقد أمامها البسيط ، ويشكل عليها الهين ،
فاذا هي في طرفة عين قد أظلمت جوانبها واتقدت نيران غضبها ،
أو غيرتها ، أو فضولها ، واذا هي تسير يقودها هوى ، أو غريزة ،
ويدفعها جنون عاطفة أو عماية بصيرة وكما ليرينا شكسبير المشاكل
والعقد وهي تنبت ، فهو لا يغفل عن أن ليرينا إياها ، وهي تتفاعل في
النفس ليرينا عمل العقل الباطن ، ويكشف لنا عن سريرة الصدور ،
وما يحز فيها ، ووليم بهذا سباق كعهده الى وضع الاسس
السيكولوجية في الرواية أو القصة ، وقد أفاد من هذه الدراسات
كثيرون من كتاب القصص ، فخذوا حذو شكسبير ، وساروا

مقدماته شوطا بعيدا، وأسرفوا في استعمالها اسرافا، كان من نتيجته أن أضحى أدب القصة بحثا سيكولوجيا غامضا، وشكسبير يكشف عن هذه المكنونات التي تنطوى عليها الصدور، بعرضه لأفكار « الشخصية » وهي بمعزل عن الناس، تتأمل فيما دارو تفكر فيما وقع لها. هو أول من ابتدع الأحاديث المنفردة « Soliloquies » فهو يترك شخصيته الحية، تشطح في دنياها، وتفكر في صوت مرتفع، وأنت تستمع لهذا الصوت الصادر من الأعماق، فلا تحس إلا أن ما يصادفك حينما من تفكير مستقيم أو ملتو، ومن تحليل سقيم أو مجذ، قد وجه إليه شكسبير أنوارا كاشفة فاستباح سره، وجعل ما يعتلج في صدرى، وصدرك يبدو للناس فى غير تعمل، ولا خفاء، وهذا من غير شك، نتيجة للدراسة الطويلة، والتأمل المتصل، بل ونتيجة للحب العميق للشخصية التي ينتزعها الكاتب من الحياة، فنحن عندما نحب، ونتوله نمنع فى الدراسة والتتبع، ونحصى كل حركة وسكنة، ونبصر كل إشارة ولقطة، ونصغى إلى كل حديث، بل اننا لنعدد الهمسات والانفاس ولنفسر الحركات واللحظات. حقا ليس أبلغ من الحب الخالص سبيلا إلى تشرب الشخصية، والاندماج فيها والمعرفة لما تنطوى عليه من عواطف ونوازع..

والحب الغنى ميزة أخرى ، انفرد بها ولیم شکسبیر عن أقرانه
ومعاصريه ، ففتحت له قلوب الأحياء ، وأطلعت على سرها المكمنون ،
انفرد شكسبیر بالحب يملأ قلبه ، ويملك عليه وجدانه ، لكل ما يلقي
من الأشخاص والأفراد ، وإذا ما هام شكسبیر وتوله فقد تيسر له
الخلق ، وتيسر له الابداع ، وولیم فنان بطبعه وحسه فلا عجب أن
أحب مخلوقاته جميعاً وهام بمبتدعاته جميعاً . يقول « كولردج » وهو شاعر
فنان ، وناقد عبقرى من كتاب الطليعة فى القرن الثامن عشر « إن
من اليسير أن ننسج من الخيال شخوصاً تنطق بأفكارنا ، وتحكى
عواطفنا ولكن أن نطلق أنفسنا على سجيتها ، وأن نرسلها إرسالا
لنتعمق فى نفوس غيرنا وتتحدث عن الآمهم وآمالهم ، وتنطق
بمشاعرهم وأحاسيسهم فى دنياهم الخاصة ، ويبيئتهم المعينة ، التى قد تبعد
عن بيئتنا ، وقد تغابر دنيانا ، فهو ما لا يصل إليه إلا الملهمون أو ما لم
يصل إليه أحد قبل شكسبیر . »

النسب الثاني

مغرب العبقرية

تركنا ولیم فی لندن ، یخطو خطواته الأولى فی قصد وحذر ،
وعرفناه قتی طوحت به المقادیر إلى مكان الإلهام ، لیزکو نبتة ، وتتقد
عبقریته ، وشارفناه یخرج من بین الجماهير المغمورة ، فیلمع فی سماء
الفن والمسرح لمعاناً یخطف الأبصار ، ویخسف الأنوار ، فاذا كل
کاتب مهما سما قدره ، وعملت منزلته ، فی دولة الشعر والأدب یحسب
لهذا النجم اللامع ألف حساب ، وإذا شکسبیر ذلك « الغراب
الحدث الذی یتحلی بریش الطواوئیس » قد نبتت خوافیه ، وغزرت
قوادمه ، حتی أضحی سید الطیور غیر منازع ، یحاق وحده فی سماء
الفن ویضرب بجناحیه فی دنیا الخیال فیمسلاً الجو من موسیقی

ألحانه، ووحى بيانه؛ ما يهيج النفس، ويضطرب الفؤاد، ويغذى العقل والوجدان.

هذا الفتى المغمور، الذى دفعته مطالب العيش، ومطاراة الأحكام إلى الهجرة من مهده. وملاعب صباه إلى لندن الجارفة، بما يلتقى فيها من سيول مختلفة متنوعة من الرجال، وما ينصب فى محيطها من أفكار لم تغرقه المدينة فى تيارها، ولم تله الأيام عن غرضه الاسمى؛ الذى يهدف إليه، بل سرعان ما انضم إلى أسرة الفن، وعالج التمثيل فى إحدى الفرق وظل نجمه يلمع ثم يخبو، واسمه يعلو ثم يهبط؛ حتى إذا ما أدركته حرفة الأدب، أعمل عقله وقلبه فى مخلفات الشعراء السابقين والمعاصرين؛ يصقلها حيناً، ويجلو غامضها حيناً آخر بل ويقتطع منها طوراً، ويزيد عليها طوراً آخر؛ حتى إذا ما ثبت قدمه وقوى، انطلق كالعملاق يسابق الريح ويندفع نحو المجد ممعناً فى العدو ناسجاً من تجاربه ومملياً من عصارة قلبه ودمه، آيات من الشعر خالدات، ومسرحيات من النسق الأعلى تفيض بالحب والحياة.

ظل هذا الموسيقى؛ الموهوب فاتحاً أذنه وقلبه لانغام الطبيعة الساحرة؛ يملأ منها نفسه وحسه حتى إذا فاض قلبه بالحب وأرهفت

حسه التجاريب، أرسل هذه الانغام الحانا وتلك التجاريب مزامير،
 فاستهوى كل قلب وخلب كل لب وأصبح اسمه على كل لسان
 علما على الفن الجميل والأدب الصافي والحس المزهف الرقيق
 عشرون سنة عاشها شاعرتنا في لندن عبداً لقلبه يشقى للفن
 ويناضل في سبيل ابلاغ رسالته، عشرون سنة من عمره القصير
 وهبها للفن متحرراً من كل قيد، خالصاً من كل تبعة، فقد جاء لندن
 وحيداً ينشد المعرفة وينشد العون على مطالب الحياة واعبائها ...
 لم يكن يحلم بالمجد فواتاه على غير انتظار، ولم يكن يؤمن بابتسام
 الحظ فابتسمت له الدنيا كلها، وأصبح حظياً عند الملكة اليصابات
 تدعوه وفرقة للتمثيل في قصرها، وتدر عليه من عطفها ما يشتد
 به عوده ويستقيم معه طريقه ... وأصبح صديقاً للأمراء جميعاً
 يبادلهم الحب الخالص، ويبدلهم النصح الثمين، وأضحى الأمراء له
 عضداً يذللون له كل صعب ويمهدون له كل عسير ... أقرب
 ولهم من الجماعة المتسلطة على القصر وعلى الحكم من الأمراء،
 تلك الجماعة التي كان يرأسها اللورد «اسكس» حظي المملكة ووارث
 تاج الملك من بعدها، فاحب الجماعة وأحبته لتقارب المشارب، فقد
 كانوا جميعاً يزينهم شباب طموح إلى المجد، وروح وثابة إلى العلا

وجدوا في شكسبير حافزا لهم منهم، وناصحا ومخلدا لآثارهم، وموحيا،
فاخلصوا له الحب، ووجد فيهم شكسبير مادة لفنه، ورعاية لأدبه،
فاخلص لهم الولاء فاعانهم وأعانوه... أشاد بذكر أسكس في
مسرح حياته، ولم تخل رواية من رواياته من إشارة عابرة، أو تلميح
إلى هذا البطل الشاب كان الجمهور يفهمها ويحسن تلقيها؛ وأدراكها
فقد كان أسكس رجل الساعة المحبب إلى القلوب.. أمتدح شكسبير
أسكس في غير موضع من رواياته وخلد دخوله لندن بعد عودته
من أسبانيا في روايته هنري الخامس، ولعل هذه الصلات بالأمراء
كانت من الأسباب المباشرة التي أثرت في نفس شكسبير الوفية
فحولتها من نفس لا يصدر عنها إلا الهوى والمرح إلى نفس حزينة
مكتسبة ترى الدنيا في لونها القاتم فتصورها بما فيها من أحزان
وآلام وتكشف عما فيها من خديعة ورياء.

كان « ساوثرهامبتون » نبيلًا محببًا إلى شكسبير بل كان نجى نفسه
وصاحب سره وملهم روحه يجد عنده ولیم الراحة من كيد الأيام
ويجد فيه ساوثرهامبتون الناصح والمشير والأستاذ والسمير

أهداه ولیم قصائده الأولى فينس وادونس Venus & Adonis
واغتصاب لو كريس Rape of Lucrece وكان ساوثرهامبتون حفيًا

بهذا الشعر حريصاً عليه فاهدى إلى ولیم شكسبير، ولما نزل في فجر العبقرية
الف جنيه، تقديراً للقصيد الأولى، وهو مبلغ ضخم على هذا العهد،
أعان ولیم كثيراً، وهياً له من وسائل النجاح ما دفعه إلى دنيا الفن
يقطع طريقها غير هيب ولا وجل، وظلت علاقة الصديقين تقوى
على الأيام وتزداد متانة. ووجد شكسبير في ساو شامبتون مادة اللالهام
الشعري فاهدى إليه مقطوعاته الغنائية Sonnets وهي مقطوعات
آية في الفن الرفيع، والحب الخالص، ودخلت المرأة بين
الصديقين، ففترت علاقتهما حيناً، إذ كان لشكسبير فاتنة سمراء
يحبها ويمجد في الاستماع إلى نبضات قلبها، راحة لفؤاده، وفي
الجلوس إليها سلوة لنفسه المتعطشة إلى الهدوء والسلوى

كان ولیم وحيداً من الأهل، فقد ترك زوجته آن هاثوى في
استراتفورد، وترك معها أولاده الثلاثة، ولم يكن يذهب إليهم
إلا نادراً، فقد الهاه اشتغاله للمجد وحرصه على الفوز في معمران
الفن، عن التفكير في أسرته تفكيراً يحمله على دعوتهم إليه للاقامة
معه في لندن، على أن هذا الاعتزال وتلك الوحدة لم تخل من
مساعدات كان يرسلها إليهم بين الحين والحين، تعينهم على العيش
الهاديء، لاسيما بعد أن ساءت أحوال أبيه، ونضبت موارده

كانت ماري فيتون السمراء الفاتنة لوليم الأهل والصديق ،
يجد عندها عزاء لقلبه ، وشفاء لنفسه ، وأرواء لعاطفته ، وكانت
مالكة فؤاده ، يتغنى بحسنها ، ويرضى لرضائها ، ويشقى لشقوتها .
كانت صديقتها الوحيدة ، كما كان ساوثرهامبتون صديقه الوحيد ،
فكان طبعياً أن يلتقي الصديقان في بيته بعد أن التقيا في قلبه ،
كان وليم يحب ساوثرهامبتون الحب كله ، ويؤثره الإيثار كله ، يغنيه
من قلبه مزامير تطربه ، ويهديه من عصارة دمه الحانا مشجية
تخلع عليه المحبة وتشع حوله أضواء الخلود ، وكان يحب ماري
ويهدأ للقاءها ، ويبدش لحديثها ، يحدثها حديث نفسه ، ويناجيها
بسرّه وجهره — هذان الصديقان كانا عدة شكسبير في حياته ،
ومصدر محبته والهامه ، أحبهما وتوله في حبهما ، فكان عزيزاً عليه أن
يخسر أحدهما ، أو أن يصاب فيهما معاً ، ولسكنها المقادير تريد أن
تمتحن وليم ، وأن تريه من صنوف الحرمان ما تثبت به فؤاده ،
وتقوى جنانه ، لينطق عن معرفة ، ويصف عن حس وأدراك
أحب ساوثرهامبتون ماري فيتون سمراء شاعرنا الفاتنة ، وبادلته
ماري حباً بحب ، وانطلقا تحت عين شكسبير يتساقيان كؤوس
الهوى ويرتشفان خمرة الحب ، وفي نشوة هذا الحب الجديد نسي

الصديقان ولیم الحبيب، وهجرا صحبته وملاعيه، وتركاه لينعما بالهوى والشباب، حزا لهجران في نفس ولیم، وآلمه النسيان، وأرقه الحرمان، وهو المحب الصادق ذو الحس المرهف والقلب الرقيق، أدمى قلبه هذا النكران وأصابته رعدة هزت كيانه وعلمته الحزن والسكابة، وأرته الدنيا البهجة المتعطرة سوداء قائمة، فنظر إليها وهو الملهم نظرات صادقات كانت معينه حين كتب مآسيه وفواجعه الكبرى التي خلدت وخلدت اسمه على مر الزمان.

فترت علاقة ولیم فترة من الزمن بصديقه ونجيه ساوشامبتون نتيجة لهذه الحادثة، ولكن أيمكن أن ينسى الحب الفياض، وأيمكن أن يزول من أفق الهوى محب مهما تدلل ومهما أسف في معاملته، وشريعة الحب هي شريعة الحب في كل زمان تملئ إرادتها فيخضع المحبون لحكمها.

أوجعت ولیم القطيعة بعد أن أدمى قلبه النكران، فعالح جراح قلبه بالتذكر لما كان بينه وبين ساوشامبتون من خلوات وما كان بينهما من أحاديث وعلاقات، فلم يلبث أن غلبه الحنين، وأن دفعه الشوق نحو صاحبه وصفي نفسه... وكان ساوشامبتون قد اطفأ جوى نفسه الظائمة من الحبيبية الشاردة، وعاد إلى صوت العقل

يناجيه ، فأحس بالخطيئة نحو صديقه وملهمه ، وودلو عادات الأمور إلى مجاريها واتصل ما انقطع ، فارى السمرء الفاتنة ما كانت لتغنيه عن صحبة شكسبير مهما أسكرته بمعسول لماها ، لقد أحبها من أجل ولیم ، وهام بها فى الضوء الساحر الذى كان يخلعه عليها أدب ولیم وحلاوة ألفاظه . . . وودلو عادت الشاردة إلى منزل الوحي ، وودلو بادلته الحب تحت أسقفه وفى ظل أنواره الخلافة ، وهكذا الخلان أبداً تتوارد خواطرهم مهما تقطعت بهم الأسباب وتلتقى أفكارهم مهما نأت بهم الديار وتداخلت بينهم الأشرار . . .

نفسان تلتهمان شوقاً وحنيناً ، وقلبان يتقدان ندماً وأنيناً ، فهل يمكن أن يظلا على البعد ، وأن يستمرا على القطيعة مهما تكن الدوافع قوية والموانع جوهرية — ما علمتنا الطبيعة البشرية فى ماضيها أو حاضرها أن سيل الحب يقف فى طريقه عائق ، أو يحول دونه حائل ، فكان طبيعياً وقد عرفنا ما يحول فى النفسين أن يلتقى الخليلان ، وأن يعودا إلى الود كاحسن ما كانا ، وإن تظل علاقتهما بمارى فيتون تلك السمرء الخلافة علاقة محبة ورضى فهى وإن تكن صاحبة الفتنة الكبرى وموقظتها ، فزادت عن أنها امرأة ، والمرأة أبداً محبة ومحبوبة ، وما يضير ولیم أن يتوله

صديقه بهذه السمراء وهو الذى كان يغريه بالحب فى قصيدته
 Venus & Adonis ويفتح له ابواب الحياة على مصاريحها ،
 وساوشامبتون ينفر كالعذراء ، ويحمر خجلا كورد الربيع
 الزاهى لقد فتحت مارى للصديقين دنيا جديدة ، اهتمت
 ولسم مغانيه الشعرية الخالدة ، واهتمت ساوشامبتون الحياة
 والحب . . . عادت انفاس الحب العاطرة تتردد فى صدور الأصدقاء
 الثلاثة ، وعاد الى شكسبير وحيه والهامه ، وهدأت نفسه الحزينة
 بعودة الأليف الى صومعة الحب ، وطفق فى ابتهاجه وسروره
 بهذه العودة ، يضيف على الحبيبين من انغام قيثاره ، الحى ومن وحى
 روحه الشاعرة آيات من الفن العبقري هداأت بها نفسيهما ونسيا
 فى ظلالها ما ذاقا من وخز الضمير وألم الحرمان

كانت تلك تجربة كبرى رسمت فى جبين شكسبير خطوطا من
 الألم ، ونحتت فى قلبه ندوبا من الحسرة والحزن ، وهيات فيه حسا
 صادقا للفجيعة ، وأدرا كا خالصا لما تنطوى عليه من بأساء ، كانا
 خير معين له على نسج مآسيه الخالدات « هملت » و « عطيل »
 و « ماكبث » و « لير » ، عند مدار الزمن دورته وقويت فى
 شكسبير دوافع الفجيعة حين عدت على الحياة العامة فى لندن

وانجملت اموجات من السوداوية والسكابة، صرفت الناس عن المرح
والزمتهم الهدوء والصمت المنبيين عن اللوعة السكامة في الأفئدة.
كانت اليزابث الملكة المرحاة الساهرة قد انطفأ مصباحها الذي
شع ضوءه في كل مكان وناحية، فاشعل نار الحماسة في كل صدر،
وبعث الامل دافئاً إلى كل قلب. . اجل انتهى حكم اليزابث والناس في
حيرة من أمرهم، ترى من يخلف هذه العاهلة التي تفتحت على
يديها افاق الحياة الجديدة، وترعرعت في ظلها العلوم والآداب؟
— ماتت اليزابث، وبموتها انقضى عهد وأختتمت إسر مملكية،
وقبل أن تموت أختل ميزان الأمور بين الأمراء، فهذا إسكس
صفي الملكة وصاحب شكسبير، قد لعبت الأحن والاحقاد
دورها في إبعاده عن قلب الملكة، وفي زحزحته عن مكانه منها،
والملكة في وحدتها وفي شيخوختها، تتلاعب بها أهواء رجال القصر
يدبرون المكائد للأمراء، وينسجون من خيالهم الخصب أقاصيص
تثير الحفيظة في صدرها عليهم، فتتمتع عنهم حيناً. ثم لا تلبث أن
تقربهم حيناً آخر — كان أسكس صاحب الخطوة الكبرى
عند اليزابث، وكان محبوب الجماهير، يتطلع الكل إلى شبابه الفياض
وإلى فروسيته العالية، وينظرون في إكبار وتمجيد لهذا البطل

الذى يعدونه لتسليم العرش إذا ما أنطفأت شعلة اليزابث .
 وأسكس فى ثقته بمنزلاته عند الملكة ، وفى اعتداده بنفسه ،
 واعتزازه بفروسيته ، سادر عن كل ما يحاك حوله ، لا يستمع إلى
 نصيح ، ولا يستجيب إلى تحذير ، حتى إذا ما اشتدت الأمور
 وأدلمت الخطوب ، وضائق الحلقة حتى أخذت بخناقها ، غضبت
 عليه الملكة ، وأمرت به فحبس ، وشرذ اتباعه ومناصروه من
 الأمراء ، وفى طليعتهم صفى شكسبير اللورد ساوثهامبتون ،
 وانتهت هذه المؤامرات المتصلة بمقتل عاهل شكسبير اللورد
 إسكس وتفرق إخوانه وفرارهم من سيف الجلاذ المصلت على
 رؤوسهم . . .

لم يكن عجيباً بعد هذه الحادثة أن يتملك الجزع نفس شكسبير
 وأن تطلق روحه المرح وأن يزهد فى إضحاك الناس وهو حزين
 النفس لمقتل سيده وعاهله إسكس وتفرق خلانته . . . وليس عجيباً
 أن يتهم شكسبير بمشايعته للأمرير الشاب ، وأن تلحقه هو الآخر
 وشايات ووشايات ، فقد كان من أشد المناصرين له ، المعجبين
 بخلاله ، المتغنين بمحاسنه ، على أن شكسبير وأن استطاع أن
 ينجو برأسه ، وأن يثبت ولاءه وإخلاصه للملكة فى أكثر من

مليئان بالكتابة... فالعصر حزين متبرم، والنفس مجروحة،
والفؤاد ملتاغ، فلاحية قد تفرقوا، والخلان قد طاحت رؤسهم
وحتى الأب السيد جون شكسبير الذى كان يعول أسرة وليم،
ويتولى رعايتها قد انشبت المنية فيه اظفارها، فقارق الحياة سنة
١٦٠١ تاركا لشكسبير عبئا ثقيلا، زاد حمولته وحز في قلبه،
فاصبح لا يتنفس الا الأسى، ولا يتمثل الا الحزن والكتابة،
وقبل ابيه مات وحيد «هامنت» فى سن العاشرة دون ان يراه
سنة ١٥٩٦ وتركت وفاته فى نفس وليم ندبة دامية، تحركت مع
العوامل الأخرى، فصاغت من نفس شكسبير اتونا يقذف بالحجم
فى دنيا المأسى، حتى اذا انصهرت نفسه، وهدأت ثأثرته، عاد
الى الهدوء، وشملت نفسه السكينة وطغى عليه التأمل، والتفكير
العميق فى ملكوت الأرض والسماء، وعمت وجدانه روح
محبة، روح التفاؤل فى كل ما يعرض له وما يحيط به
تحول شكسبير بعد هذه الثورة الجاحمة المتشائمة الى هدأة تفيض
بالتفاؤل والرضى والاقتناع، وأصبح رجلا آخر وديعا هادئا —
وفى ظل هذا التحول الجديد كتب شكسبير المجموعة الأخيرة من
رواياته، وهى «سامبيلينا» وقصة الشتاء «وبريكليس» «والعاصفة»

وكلها تدور حول الأحلام والمتاعب التي تعرض للنفس ولكنها
تنتهى جميعا نهاية حلوة بهيجة كلها سرور وغبطة ؛ مما يدل على
اعتناق شكسبير لمذهب جديد فى التفكير ، هو الرضى عن المقادير
والاستسلام لها ولعلمها فورة الايمان التى تسبق النهاية ، فقد كانت
العاصفة ؛ آخر ما كتب وليم للمسرح ؛ وآخر ما خط فى كتاب
الحياة الذى تركه تراثا للأجيال يتأملون فيه ويستلهمون منه
الوحي والعبرة

إن صوت الريف كان ينبعث من الأعماق فى هذه الروايات
مناديا شكسبير أن ، قد آن الأوان للعزلة والهدوء ، فلتقفل كتابك
ولتدع قلبك ، ولترح أعصابك ، البقية الباقية من عمرك فى قريتك
المحبوبة ، وإنا لنحس وليم يستجيب لهذا النداء الصارخ حين دفع
بالساحر العظيم الذى أتى بالمعجزات فى « العاصفة » أن يطلق
سحره ؛ وان يغرق كتبه فى أعماق المحيط ، وان يدفن قلبه فى
مكان سحيق من الأرض لا تقع عليه العين

كانت « العاصفة » آخر ما كتب شكسبير فهى الصفحة
الختامية لهذا السفر المنظوى على ست وثلاثين رواية هى عصارة
القلب وشعلة العقل ، كتبها وليم بمداد من دمه ، ووحي من

تجاريه ، فلا عجب أن نجد بعد هذا الجهاد الجبار الذى اتصل
عشرين عاما ، قد وهنت قواه . وضعف بدنه ، واحتاج الى الراحة
فى قريته الجميلة استرا تفورد على نهر الافون

محرر شكسبير لندن سنة ١٦١٢ الى قريته الوارفة الظل ليعيش
فى ظلال الوادى الذى أحبه ، أيامه الباقيات - ذهب وليم الى
استرا تفورد ، بعد ان جاهد جهاد الابطال ، ووصل الى القمة فى
فى سنوات معدودات ، وخلف وراءه تراثا من النور ، والحكمة
ستظل الأجيال تنهل منه ، وتستضيء بهديه ما بقى على الأرض ،
متكلم أو مفكر

بدأ شكسبير حياته فى لندن ممثلا يلعب الادوار الثانوية ويحل
محل الغائبين من الممثلين الأول لقاء دراهم معدودات ، ولكنه لم
يلبث أن قفز من الظل إلى النور ، وأصبح عماد فرقته ومغنيها بلبان
فكره ، ولوامع درره ، وبعد أن كان ممثلا ، أضحي مؤلفا ومخرجا ،
ولكنه حين علا كعبه ، وامتد ظله ، لم ينس حرفته الأولى ، ولم
يطلق أدواره الحبيبة ، فكان يلعب من حين إلى حين ، بعض
الأدوار التى تروقه ، والتى يرى حين كتابتها أنه أقدر من غيره
على إبرازها وتوضيح شخصيتها ، وأول ما نعرف شكسبير ممثلا

سنة ١٥٩٣ حين انضم إلى فرقة اللورد شامبرلين ، وظهر على المسرح أمام الملكة اليزابث مع الممثل المشهور (Burbage) «بير بادج» ، وظل نجم شكسبير بعد ذلك يعمل في الكتابة والمسرح حتى أضحي فنه مصدر كسب عظيم له ، أعقدق منه على أسرته ما أضح حالها ، وعاد بأبيه سيرته الأولى من الإتجار والثروة ، وفي سنة ١٥٩٧ ، استطاع ولیم شكسبير أن يشتري ببعض ما تجمع له من أموال بيتا في استراتفورد اسمه (New place) بمبلغ ستين جنيها ليكون مقراً له حين زيارته للقرية الجميلة ، كما اشترى عقاراً آخر في لندن ، وفي هذه السنة نفسها ، ظهرت أولى مطبوعات شكسبير الروائية ، إذ نشرت له ثلاث روايات هي : « روميو وجوليت » و « ريتشارد الثاني » و « ريتشارد الثالث » ، وقد سبق هذا النشر الروائي ، نشر شكسبير لقصيدة «فينس وأدونيس» سنة ١٥٩٣ وقصيدة «اغتصاب لوكريس» سنة ١٥٩٤ وكلتا هاتاهاتان الى اللورد ساوثامبتون رمز صداقة وولاء ... وتتابع السنوات بعد ذلك ، وتتابع معها نشر أعمال شكسبير ، وكانت أولى الروايات التي حملت اسمه كمؤلف رواية جهد الحب الضائع Love's labours Lost سنة ١٥٩٨ وفي هذه السنة نفسها تو طدت بين شكسبير وبين «بن جونسون»

الكاتب المسرحي الشهير صداقة ومحبة ، كانت مشار إعجاب الناس وموضع رضاهم ، فقد كان الصديقان يجتمعان دائماً ويتبادلان الآراء ، ويتراشقان النكات الحلوة ، والنقد اللاذع ، وقد ظلت صداقتهما قوية حتى قضى شكسبير فكان بن « جونسون » آخر من رآه وآخر من ودعه .

ولا شك أن شكسبير قد تفتحت له أبواب الرزق كما تفتحت له أبواب العبقرية ، فانسالت عليه الأموال ، من المسرح ، ومن الروايات ، ومن النشر ، ومن القصائد ، ومن أملاكه ، بدرجة استطاع معها أن يشارك في ملكية أكبر المسارح التي كانت تعمل في لندن على عهده ، وأن يشتري أراضى زراعية في بلده استراتفورد وأن يشتري بيتاً آخر هناك .

لقد كانت المسارح التي تعمل في لندن أيام شكسبير أربعة هي : « الستار Curtain » و « المسرح Theatre » و « الوردة Rose » و « البجعة Swan » وكانت كلها خارج مدينة لندن على ضفاف التيمز الجنوبية

أما في لندن نفسها ، فكان هناك مسرحان عمل فيهما شكسبير هما مسرح « الرهبان السود » Black Friars ومسرح

« الكرة » Globe وكان الأول ملكاً « لبربادج » Burbage الذى عمل معه شكسبير فى أيامه الاولى، وأما الثانى فقد بناه بربادج أيضاً هو وإخوانه ومنهم شكسبير سنة ١٥٩٩ ، ولهذين المسرحين ظل شكسبير يعمل ممثلاً ومنتجاً ، وانتهى إلى المشاركة فى ملكية « الكرة » وقد توفر له بهذا حظ كبير وقسط عظيم من الثروة أتاح له فرصة شراء أراض زراعية وأملاك فى مسقط رأسه ومهد صباه ، كانت تدر عليه مبلغاً كبيراً فى كل عام ، ووفرت له بذلك حياة هادئة ناعمة فى مغرب عبقريته — وقد ظل شكسبير طوال أيامه يعمل ناشطاً فى التمثيل والتأليف والإخراج ، إلى أن شغله الإبداع الفنى الخالص ، وانتاج الروايات من وحي عبقريته ، فانصرف عن التمثيل ، وعكف على الكتابة وحدها ، وقد استغرقت جل وقته ، إذ كان يخرج للمسرح فى كل عام روايتين أو ثلاثة ، وكان إلى ذلك يشرف على الإخراج والتمثيل ليضمن فهم الممثلين لأفكاره وتحقيقهم لأهدافه .

ظل شكسبير فى لندن لا يبرحها حتى بنى مجده ، وأقام أسس عبقريته على دعائم متينة ، وأضحى اسمه معروفاً مذكوراً ، وأعماله مشهورة محفوظة ، ففكر فى أن يعيد إلى استراتفورد مجد أسرته القديم واسمها التالذ ، فطفق يشتري الممتلكات والعقار ،

ويتوسع في الخيرات ، حتى أضحي لإسم شكسبير جاهه وسلطانه ،
وارتضاه أهل القرية إماماً وناطقاً باسمهم ، ومعبراً عن مشاعرهم
— وحين ابنتى شكسبير في ستراتفورد هذا المجد ، وامتلك هاتيك
الثروة ، ظل يتردد عليها سنواته الأخيرة في لندن مشرفاً على ضياعه ،
ومتعهداً لأعماله ، وراعياً لأسرته وزوجه ، وفي سنة ١٦٠٧ تزوجت
كبرى بنتيه من صيدلى باستراتفورد ولم تلبث أن أنجبت له حفيدة
سنة ١٦٠٨ ، قرت بها عينه ، وسرت بها أمه «مارى أردن» ، ولكن
سرورها لم يطل إذ اختطفها المنية في أواخر هذا العام ، وذهبت
روحها إلى بارثا راضية مرضية ، قريرة العين ، أن رأت ابنها
الشارد يعيد ما انصرم لأسرتها من مجد ، وما تناثر على يد الزمان
من رفعة وعلو شأن ، وفي أواخر سنة ١٦١٢ عاد وليم شكسبير إلى
قرية استراتفورد على نهر الافون ، ليعيش في هدوء مع زوجه
وأسرته ، وهو بعد لم يناهز الثامنة والأربعين ، ول يتمتع نفسه في
ظلال الوادى السحري الذى فتق عبقريته وأشعل نيرانه المقدسة
فأضاءت العالم وملاّته سنا وسناء .

عاد شكسبير ليهدأ بعد عمل متواصل دام ست وعشرين
عاماً ، كافح فيها حتى وصل إلى غايته ، وحقق بغيته ، في المجد

والخلود — عاد شكسبير إلى مراتع الصبا ، وغدران الفتية ليربح
فؤاداً أضنته الأيام ، وقلباً أوجعه الحدثان ، وعقلاً أنهكته
الأفكار ، وجسداً أوهنته الأعمال — عاد ليفكر فيما مضى وليتأمل
فيما سيأتي قرير العين بما كسب هانيء النفس بما أدى خوراً بما
أنتج راضياً عن نفسه مرتاح الضمير ، لأنه ما وني ولا قصر ،
وليس أسعد من انسان عمل ففاز ، وجاهد فلم ينحاز ، وأدرك
منتهاه ، وحقق مبتغاه ، من أسلم الطرق وأشرفها ، ثم انصرف في
رضى وقناعة ، مكتفياً بما أدى ، تاركاً السبيل لغيره .

لقد عاش شكسبير مجاهداً ، وانتهى مسالماً ، بعد أن قطع في
حياته القصيرة أشواطاً لن يدركها أحد بعده — أسلم شكسبير
نفسه للدعة والهدوء ، وعكف على مزارعه ومرابعه يتعهد بها
ويذكر فيها أيام صباه ، ولم يثنه مقامه في استراتفوردي عن
الرحيل من حين إلى حين إلى لندن ليشاهد آثاره ، ويستمتع برنين
المجد يتصاعد إلى مسامعه .

عاش ولیم ليشاهد المجد الذي انهار أمام عينيه ، وهو قتي
غض العود ، يعود إلى ما كان له من جلال ورواء ، ورأت عينه
في رجولته عودة الدنيا واقبال الزمان ، بعد ان اكتحل في صبوته

بذهاب الدنيا وادبار الزمان ، وهكذا كانت حياة وليم سلسلة من المفارقات العجيبة ، والمصادفات السعيدة التي قلما تتهياً في زمان أو مكان إلا إذا كانت يد العناية من ورائها تغذيها وتنميتها

عاش وليم ليشهد زواج ابنته الثانية « جوديث » Judith سنة ١٦١٦ ، وليكتب وصيته الأخيرة ، وفيها أغدق كل ثروته على ابنته الكبرى « سوزان » وأوصى لابنته « جوديث » ببعض المال ، وترك لزوجته « ان آثواى » نصيبها الشرعى ، ووهبها فراشه الثانى ، كما ترك لأخته نصيباً ، وللفقراء فى استراتفورد نصيباً آخر ولم ينس أصدقاءه الممثلين ، فترك لهم حظوظاً متفاوتة فى ميراثه .

وفى الثالث والعشرين من شهر ابريل سنة ١٦١٦ اقيم جو استراتفورد وغامت شمسها إذ اختارت الاقدار هذا اليوم مغرباً للشمس التى ضاءت وتلاألت ربع قرن فى سماء لندن واستراتفورد ، وتركت للناس ميراثاً خالداً من الحكمة ، ونبعاً صافياً من المعرفة ، ما يزالون ينتهلون منه ، ويستضيئون بوجيه .

نعم خفت هذا الصوت الملى الذى طالما رن صدها فى مسارح لندن وقصورها ، وانطفأت هذه الشعلة المباركة التى طالما أضاءت

نفوساً حيرى وألهمت أرواحاً شاردة ، نعم خفت صوت جبار
 القرون ، وانطفأت شعلته الملتهبة ، وأصبح هذا الإنسان
 العبقري في سجل التاريخ — أسلم ولیم شكسبير في الثالث والعشرين
 من شهر إبريل سنة ١٦١٦ أنفاسه الأخيرة في هدوء وسكينة ،
 بعد مرض لم يممه سوى أيام ثلاثة ، وانطوت بموته صفحة خالدة
 من صفحات الحياة — ودفن الجثمان في كنيسة استراتفورد في
 اليوم السادس والعشرين من ثلاث وخمسين سنة ، وحزنت
 استراتفورد الجميلة لفقد عاهلها ، وحزنت لندن لفقد واحدها —
 وأقام محبو شكسبير تمثالاً له ، نصبوه عند قبره ، ونشروا على رفاته
 زهوراً ، طالما أحبها في حياته ، وهكذا قضى حيث نبت ، ومات
 حيث ولد وفيما لم يراع ولم يراع صباه .

ولم تمض ستون سنة على موت ولیم شكسبير حتى انقرضت
 أسرته ، ولم يبق منها واحد في عداد الأحياء ، وبذلك لم يعد
 لشكسبير ذكر إلا في كتابه الجي الخالد ، ذلك الكتاب الذي يقرأه
 المتفرقون في أقاصى الأرض على اختلاف لغاتهم ، وتعدد ميولهم ،
 وتفاوت أهوائهم ، فيجدون فيه الحياة مسطورة بأحداثها ،
 وحكمها ، وأهوائها ، وميولها ، يقرأونه جميعاً ، ويعرفونه

جميعاً ويدنون له بالفضل جميعاً .

هذا الكتاب المقروء عند الناس أجمعين ، يرى فيه كل حي صورة نفسه ، يرى فيه آلامه وآماله ، ويلتمس عنده المخرج من الضيق ، والفرج من الشدة ، والملجأ من مرارة الأيام ، والمرفه في المرض ، والمشجع عند اليأس ، والحافز عند الهزيمة ، والواعظ حين البطر ، والمذكر حين الاشر ، والمؤنس حين الوحشة ، والمنقذ حين العوز ، والمرشد حين الضلال ، هذا الكتاب الحى الخالد ، استطاع أن يجمع الناس عنده وأن يلهمهم ويلهب حسهم ، وكفى ذلك شكسبير فخراً ، فقد استطاع أن يوحد كلمة الانسانية وأن يجمعها على كتابه منذ أربعة قرون ، على حين فشلت الانسانية وفيها العقول الجبارة ، والنفوس الملهمة ، أن تجمع كلمة العالم على عهد وثيق ، يؤمن الخائف ، ويهدى الضال ، ويطعم المحروم ، ويبسط السلام على الأرض .

هذا الكتاب العظيم الخالد ، هو كتاب الحياة ، كتاب العبقريّة ، وسر خلود شكسبير ، وآية عظمته ، فلنتلو صحافه خاشعين ، ولنذكر ذلك الرجل الذى سكب روحه فى تلك الصحائف ، وخطها بمداد من دمه ، فى إكبار وإعجاب خليقين به . . .

الفصل السابع

قطوف من جنا العبقريّة

كان لابد لنا بعد أن رسمنا للقارىء صورة عامة لفن شكسبير وأدبه المسرحى ، أن نضع بين يديه قطوفا من هذه الجنة الدانية الثمار ، عله أن يجد فى حلاوة رحيقها ما يغريه بارتشاف هذه الخمر المعتقة ، التى ظلت قرونا تسكر بحلاوتها الشاربين ، ولن تزال معيننا للبهجة ، ومصدرا للإلهام ، مادام على الأرض نفس يتردد — وقد عينا ونحن نقتطف هذه الثمرات ، أن نقدم للقارئ صنوفا وألوانا من جنا هذه الجنة الفيحاء ، ليكون التمثيل جامعا منوعا ... ورتبنا هذه المنوعات ترتيبا زمنيا ليساير القارىء معها كم العبقريّة وهو يتفتح ؛ وليشاهد شعلة النبوغ وهى تتقد .

لعل أول ما عرف من انتاج شكسبير الأدبي هو قصيدته
فينس وادوينس ، وقد لخصناها في موضع آخر من الكتاب ،
كما لخصنا قصيدته الثانية « اغتصاب لو كريس » ، ونحب في هذا
المقام ، أن نقطف من القصيدة الأولى مقطوعات تنبئ عن قوة
التصوير ، وبلاغة التعبير — بدأ الشاعر بوصف مكان اللقاء
وزمانه :

عندما قطعت الشمس ساعات الصباح
ونضت عن نفسها دموعه النديه
ومضت تكسو وجهها حمرة الضحى
انطلق ادينوس جاد السير مستحث الخطى
إلى جوف الغابة الملتفة يلتمس الصيد
فقد كان الصيد كل هواه
أما حديث الحب فهراء لا يستثير إلا السخريه
ولكن فينوس تمضى فى اثره تلاحقه
كمحب أتلفه الحب وألحت عليه الرغبه
فهى تناجيه وتراوده

وهو لا يلقي بالا إلا إلى صيده

فينوس — يا أجمل زهرة تبسم عنها الروض

وتنفس بعطرها الوادى
يا من حبه الطبيعة جمالا فاق جمالها
أضعافا ثلاثة وعلا على حسن الملائكة
ربز فتنة الرجال
أنت يا من ختمت الطبيعة به آيات خلقها
فكنت الجمال وكنت السكامل ...
هلا لويت عنان هذا الجواد
وعقدته إلى السرج وترجلت
ان أوليتنى أنا المحبة هذا الجميل
أطلعتك على أسرار قلبى العليل
تعال الى هذه البقعة الطهور
قد خلت من اثم الشر والفجور
ودعنى أمطرك وابلا من القبل
قبلا لا تحس منها مللا
أو تلوى فلك الجميل عنها كالا
احتوت رشفاتها كل لون وطعم
هذه قبلاات عشرة قصيرة كأنها واحدة
وهذه طويلة كأنها مائة

ولشد ما يقصر اليوم وينتهى
ونحن لما نزل في لهونا الشهي

وتمضى فينوس فتزع الفتى من سرج جواده وتجلسه اليها ثم
إذا هما جالسان وقد اعتمد الفتى على ذراعها ، وهي مقبلة عليه
تمطره بقبلاتها وهو يلوى عنقه عنها خجلاً

كست وجنيته حمرة الخجل
فألهبت خديه ناراً تشتعل
ودموع فينوس الهامية تطفئ ما استعر
من حريق تقدح الانفاس منه ماخذ
إن أراد النطق بلوم أو نطق
عادت القبلات تترى فسكت
فينوس - إن أعدت اللوم أو رمت الكلاما
لم أزل أقتل بالضم الكلاما
بعناق وقبل ...

وفي حرارة الشوق تلثم كل موضع فيه ، حتى إذا لم يبق مكان
لم تلثمه شفتها ، عادت من جديد للضم والقبل ، وأدونس
لا يزداد إلا ضيقاً ، ولا يضطرم في وجهه إلا حمرة الخجل ،

يحاول أن يصدها أو ينحيا عن صدره، فما تزداد إلا أقبالا .

(فينوس) : -

لا تخـلـل إني حافـلة

أو ينال الصد مني نائلة

بل قسماً بجمالك المنشود

لا أرعوى عنك أو أعود

حتى توفي دمعي المنسكب

بقبلة منك تقضى الأرب

ويرى أدينوس إلا مناص من أن يقبل هذا ليخلص منها

فيوافق على منحها قبلة ، ولكنه حين يرفع رأسه ليوفي الحساب

ويلحها مقبلة عليه يغلبه الحياء فيشيع بوجهه عنها ولكنها تتلف

على هذه القبلة ، وتذهب نفسها من أجملها حسرات .

كمسافر أجده الحرور

في يوم صيف قيظه مستطير

تشتهي نفسه قطرة من شراب

تطفئ النار وتودي بالعذاب

بلل الدمع خدودا فارتوت

غير أن النار فيه مازوت

(فينوس) : —

إنها قبلة لا أبغى سواها
انلها النفس لا تبغ أذاها
أيها القلب أمن الصخر قددت
أم أذاب الخوف منك الرجل ؟

وتظل فينوس تناجيه وتشير فيه نحوه الحب حتى تخرجه عن صمته
(أدونس) : —

لا تحسبي منى الصدود تجافيا
وما كان في صدرى من الحب خافيا
ولا تستعجبي إن لم أكن بك حافلا
فما كنت أدري ما الصباية والجوى
وما أنا بالمسلوب مستعر الهوى
ولكنى صغير السن لا أدرك الهوى
فهل يقتضى هذا الغرابة من أمرى ؟

ويظل هذا الحوار بينهما هو يصند وهى تلح ، حتى ينطلق
جواد أدونيس فى أثر فرس وقد نما عن رأسه الغنان ، وانتبذ
القيد ، ويسرع أدونيس للحاق به ، فلا يستطيع فيعود وقد أجهده
العدو وملأه الغضب .

(أدونس) ألا فدعيني قد اضنعت جوادى

بلغو حديث فارغ ومعاد
وأذهبت من يومى جمالا وبهجة
وما كنت أرجو من لقاء صحابى
ألا تشعرين العار ويحك فاذهي
وخل سبيلى قد أطلت عذابى
وما عاد يغنى القلب قول محبب
وترديد آهات وبث شكاة
وأن بقلبي من جوادى لغصة
فان لم يعد طارحته حسراتى

(فينوس) لعمرك ما ضل الجواد وما غوى

وهذا نداء الدم قد أحدث النجوى
وهذا ديب الهاتفات بعرقه
يعلمه ألا حياء ولا خوفا
وأن دعاء الحب نار وقودها
هو القلب ما ينفك مستعراً وقدا
وأن غرام النفس لا يعرف الحدا

وأن عرف البحر العظيم له حدا
فلا تعجبين إن حطم القيد وانبرى
لحاجته لا ينصت السمع أو تقضى
ألم يك مربوطاً يذله الأسر
يقيده جلد ويحزمه شعر
فما أن رأى الحب الجميل بعينه
وهاجت به الأشجان واستعرت ومضا
فهب إلى القيد البغيض محطاً
وأهوى على الأرسان يوهنها قضماً
وأمضى يهز الجيد حرّاً وهامة
وهذا الصدر متقد جمرًا
ألا فاسمعن منى عن العاشق العذرا
ولا تغضبن إن هتك الحب السترا
بلى وليكن هذا الجواد معلماً
يلقننا درسا ويفهمنا علماً
تعلم وأقدم لا تضع ما وهبته
من الحب صفواً غير محتلط كدرا

وإن دروس الحب جد مفيدة
إذا حفظت يوماً فلن تذهب العمر
(أدونيس) إن هذا الحب شيء أجهله
لست أدريه ولا ابن أعرفه
إن يكن صيداً فإني أنشده
إن يكن حباً فإني أمقته
إنما الحب دموع وأسى
وموات وحياة في تعس
وعطاء يرتجى أو يلتبس.

ويمضى أدونيس إلى صيده ، وتمضى فينوس في إثره حتى تقع
عيناها عليه جثة قد حطمها الموت وحال لونها : --

تبصر العين منها مشهداً يجلب الأسى
وشفاها لونها حائل شاحب
ترفع اليد وهذه ميتة باردة
وتصب في الأذن قول صب مضيع
لن تسمع الأذن من حديث أو تع
تفتح الجفنين عن مقلة لا ترى
سرق الموت نورها ، لم تعد تبصر الهوى

وترقد فينوس فوق الجثة الهامدة تبكي جمالا مضيعا ، وأنها
لترى زهرة نامية قد رويت من دماء الحبيب ، فتقطفها وتجعل
مكانها في صدرها حيث النجوى وحيث الحب : --

أرقدى حيث كنت أرجو الحبا
في مكان شئت لأبيك ملعبا
قد جعلت الصدر مهداً كنت فيه الولدا
هزه القلب دائماً لا يني أو يتعبا
لن أنام الليل أو أقضى الزمن
في سوى الحب وذكري الشجر.

وما دمنا في معرض الشعر فلنسترسل قليلا ، ولنمض في
قراءة بعض المقطوعات الغنائية التي كتبها الشاعر ليفصح عن
احساس نفسه وعما اختلج في صدره من أحاسيس فيها الحب
وفيهما الرضى وفيها الألم وفيها الشكوى .

ثورة (١)

كالموج هادرة ومقبلة
متزاحمت في تقدمها
تدنو مزجرة لغايتها
واليوم يمضى ثم يعقبه
ايامنا للشاطئ الصخري
متفاوتات الطول والقصر
والموت في أذيالها يجرى
يوم يحل بساحة الذكر

والومضة الأولى التي طلعت
بلغ الكمال بها فصيرها
فاذا الكسوف اناف مكتئبا
يعطى الزمان اليوم مته
في ظلمة الديجور والغلس
نور أفيض كشعلة الشمس
أودى بنور الشمس والقبس
ويرد ما أعطاه بالأمس

إن الشباب وحسن طلعت
ولكم جبين فاتن طمست
فاهناً حبيب القلب مبتهجا
وتمل ساعات الحياة فما
يندوى مع الأيام والزمن
منه الغضون معالم الفتن
بالكون في اشراقة الحسن
بعد الحياة لناسوى الكفن

إني وشعري العبقري وما
كالعابد المفتون مبتهلا
ابدعته من خالد النظم
يتلو عليك روائع الكلم

الكذب الحى

حينما تقسم — ماأ كذبها —

انها صيغت من الصداق الصراح

أدعى إني قد صدقتها

ماعلى الكاذب فى الحب جناح

عليها تحسب أنى حدث

لم تهذب شجون وجراح

كذب الدهر عليه فمضى

يحسب الدنيا مراحا ومزاح

ويح نفسى !! أنا فى زعمها

ذلك الجاهل والطفل الغرير

ذهبت أجمل أيامى فما

أرتجى السلوان فى الباقي القصير

غير انى كلما تكذب لى

اتلقى المين كالراضى القرير

وكلانا خادع صاحبه
كأتم للحق في جوف الضمير

يا لدعواها ودعواى !! وما
ضرنا لو لم نكن فى الكاذبين

أنت !! ما ضرك لو صدقتنى
وأنا لو جئت بالصدق المبين

أمن الحكمة فى شرع الهوى
أن يكون المين دين العاشقين

لنقل أنا صغار انما
يخمد الصبوة تعداد السنين

فدعونى وحبیبى وحدنا
نتهادى الزور من دون العباد

غفر الله لنا أکذوبة
جمعت قلبين فى دنيا الوداد

الحب يتغلب على كل شيء

حينما تعثر في الدنيا جدودي
ويراني الناس منبوداً مريياً
أسكب الدمعة حرى كهذا
وأوالى الندب ، محزوناً كئيباً
تقرع الصرخة أبواب السما
لا تجد فيه سمياً أو مجيياً
ثم أولى النفس لوما وأسى
بالذى لاقيت ، لغنا ونحيباً

* * *

ليتني كنت رضيعاً آملاً
كالذى يحيا بمعسول الرجاء
صورتني مثله دنيا الأمانى
وأحاطتني بخير الخالصاء

أتمنى أن أنل حظاً بهيجا
حظ ذى الفن وموفور الكفء
وأنا الراضى بما فزت قريرا
قلت المتعة ، أو أربى هنائى

ساورتنى هذه الآراء حتى
ضقت بالنفس امتعاضا ونفورا
فإذا ما طاف بى منك خيال
وأنت ذكراك سعاداً وجبورا
كنت كالطائر أخلى عشه
فى انبثاق الفجر ، طيراً وظهورا
ومضى يملأ أسمع الدنيا
فى طباق الجو تشييبا ظهورا

إن تكن تعلم هذى ثروة
فهى من فيضك والحب العميم
لست أرضى بعدها لى بدلا
بالمملك الصيد ، والمجد الجسم

الروح والجسد

آه ، لو أن ذرات جسمي
خلقت من سوانح الآراء
لطويت الفجاج ، أرضا فارضا
لم تعقني مفاوز اليبسداء
وتدائيت من مكان قصي
رغم بعد النوى ، وبعد الثواء
وتناهيت ، حيث أنت مقيم
وتوصلت ، حيث أنت رجائي

* * *

وسواء لدى ، من بعد هذا
أن يمد الزمان جبل الفراق

أو يكن بيننا مكان سحيق
في بعيد الفجاج والآفاق
فإذا الشوق هزنى واستبدت
بفؤادى لواعج الأشواق
جاوزت بى إليك براً وبحراً
خطرات المقيم المشتاق

يا لشكلى ! فما أنا طيف
من طيوف الخواطر السانحات
كيف أستطيع إن تناءيت عنى
أن أجوز المراحل الشاسعات
واستحال اللقاء ، وامتدت الأثر
ض ، وفاض العباب بالزخرات

لم يكن لى على الفراغ مراح
غير دمع ، وإنه وشكات

لم أفد من تأملى فيك إلا
ما يفيد المحزون من آلام
ودموع سكبتها وهى تترى
أفصحت عن تحسرى وهيامى



الحسن الخالد (١)

وأنا لفي طلب المزيد من الحسن
وإلا أصاب الحسن عصف من الوهن
كزهرة هذا الروض بعد اكتمالها
يحل بها سهم المنون فلا تبقى
لعمرك قد أنكرت حق طبيعة
حبك جمالا إذا أبيت له نشر
كأنك نار اطعمت لوقودها بنار
فما أجدى الوقود ولا أغنى
عشقت بعينيك المفاتن ما بدت
بعينيك ما تبغى لحسنهما نسلا
فكنت لهذا الحسن منك مناصبا
عداء وكان الخير والحق ان يسرى
جعلت فقيرا ما اردناه زائرا
وأحلت جمال الروض مكتئبا فقرا
حنانك لا تحرم وجودا جماله
وإلا فانت كذاك الموت في المنع والحبس

الحسن الخالد (ب)

وَأَنْ أَرْبَعِينَ إِذَا بَلَغَتْهَا
وَشَقَّتْ لَهَا فَوْقَ الْجَبِينِ غَضُونَهَا
وَكَانَ لَهَا مَا كَانَ مِنْ عَصْفِ
بِهَذَا الْجَمَالِ الْعَبْقَرَى وَمِنْ خَسْفِ
وَرَأَى رَدَاءَ الْحَسَنِ بَعْدَ بَهَائِهِ
مُعْطَلَةً أَطْرَافَهُ مِنْ رَوَائِهِ
وَكَانَ سُؤَالُ النَّاسِ أَيْبَاكَ مَا صَنَعْتَ
يَدَاكَ بِذَاكَ الْحَسَنِ مِنْهُ وَمَا أَبْقَتْ
فَلَسْتَ تَجِدُ إِلَّا عَيُونًا تَذْبُلَتْ
وَصَفْحَةً وَجْهٍ قَدْ ذَوَتْ وَتَجَعَّدَتْ
وَأَنْكَ مَا أَحْرَاكَ أَنْ تَقْضَى الْعُمْرَا
وَأَنْ تَكْتَسِبَ فَوْقَ الْوَفَاءِ بِهِ فَخْرَا
إِذَا أَنْتَ قَدْ خَلَقْتَ لِلنَّاسِ صُورَةً
تَطَالِعُهُمْ مِنْ حُسْنِهَا قَمْرًا بَدْرًا
وَكَانَ جَوَابُ السَّائِلِينَ سُؤَالَ الْهَمِّ
مَحَاسِنَ ذَاكَ الْوَجْهِ قَدْ حَفِظْتَ ذِكْرًا

الحبيبة الباقية

هل لى أن أقارنك يا حبيبتى بيوم من أيام الصيف :
انت أحلى وأهدأ وأبقى

الريح العاتية كثيراً ما تعبث بأكمام الأزهار والشمس طالما
نقرب من الأرض وطالما تختفى ، والورد يذبل أحياناً ، وتحمله
معها تيارات الغدير

أما انت يا حبيبتى فصيفك ، لا يذبل فيه ورد ، لا ولن
يستطيع الموت أن يفخر بأنك سرت بين ظلاله مهما طال الزمن ،
أو عدى عليه الهرم .

ابدا انت حية :

فما دام فى الدنيا إنسان ؛
وما دامت فى الأرض عين ترى .
فشعري هذا سيعيش ويخلد
وانت ستعيشين معه وتخلدين ...

انتظار الحبيب

مادمت عبدك فما على إلا أن أرقب الساعات وأعد الدقائق
من أجلك .

ليس لدى من الوقت الثمين ما أقضيه ولا من الأعمال ، ما
أعمله إلا أن تطلى منى ذلك ، لا ولا أجرؤ على عتاب الساعة إن
سارت فى بطاء وأنا أنتظر مقدمك .

لا ولا أستطيع أن أحسب مرارة البعد مريرة حينما
تبرحينى مودعة .

لا ولا أجرؤ أن أسأل نفسى حين تعبث بها الغيرة أين
تكونين وأنت بعيدة عنى ولا أى شىء تفعلين .

هكذا يأمر الحب يا حبيبتى

كل ما تفعلين وكل ما تقولين حبيب إلى نفسى قريب إلى قلبى

التمثيلات

« روميو وجولييت »

روميو قتي من أسرة (مونتاج Montague) وجولييت فتاة من أسرة (كابيولت Capulet) والأسرتان تتنازعان مراتب الشرف في فيرونا ، وتتوارثان بحكم هذا المركز ، إحنا وأحقاداً قديمة ، تغلغلت في نفوس أفراد الأسرتين جميعاً ، وانتقلت نارها المستعرة الى الخدم والحشم ، فما يمكن أن يلتقي واحد ممن ينتسبون إلى هذه الأسرة ، بآخر ممن يمتون بصلة إلى تلك ؛ حتى تستعر نار الخصومة ، ويورى زند الخلاف وتشهد شوارع فيرونا الهادئة كآثر لذلك معارك دامية عنيفة تعمر صفاءها ...

وفي ليلة من ليالى الزمان الساحرة ، دعا لورد « كابيولت » جميلات فيرونا إلى وليمة راقصة في قصره ؛ وفتح أبواب قصره العتيد ، لكل عاشق للجمال ؛ محب للفتنة من أهل فيرونا ما دام لا يمت بصلة إلى أسرة « مونتاجيو » البغيضة ...

وكان بين جميلات فيرونا اللاتي دعين إلى هذه الحفلة الساهرة « روزالين » حبيبة « روميو » ابن اللورد « مونتاجيو » -- وزين الشوق «لروميو» أن يذهب ليرى حبيبة الفؤاد، وليكن ما يكون، ويسر له الخلان السبيل وهونوا عليه الأمر؛ فذهب في صحبتهم متكرأ فهو من أولئك الذين يستهويهم الحب؛ فيسهرون الليل من وجد العشق وحرارة الهيام... واستقبلهم اللورد «كايولت» بقلب مرح... وما كاد يستقر بهم المقام حتى دار الرقص وعلق بصر «روميو» فجأة بغانية فاتنة ساحرة، ترقص في ناحية من البهو الكبير، فكأنما نزعته منه هذه النظرة فؤاده واستلبت لبه، فانطلق يتغزل في محاسنها، ويضفي على جمالها وكماها ألوانا من سحر القول استمع له واحد من أسرة «كايولت» مصادفة فعرف روميو من صوته؛ فهاج ثأره، وود لو استطاع أن يقتل هذا الطارق الغريب؛ ولكن عمه حال بينه وبين بغيته؛ فسكت على مضض وأضمحل «لروميو» الحفيظة، وتوعده ليوم قريب يصفي فيه حساب هذا التطفل...

وطار «روميو» على جناح الحب إلى حيث ساحرة لبه، وسأله فؤاده، يبادلها الحديث ويسجد أمام هيكل الجمال في خشوع وضراعة،

كحاج جاء يلتبس الرضى وينشد العفو، ودار بين «روميو» وفاتنته
حديث كله سحر، وتلاعب بالألفاظ، دعيت أثناءه مالكة القواد
لتجيب سؤال أمها فاستأذنت منصرفه، وتركت «روميو» يتساءل من
تكون الفاتنة؟

وعلم روميو أن سألبة فؤاده، ومالكة قلبه أن هي إلا «جوليت»
ابنة اللورد «كايولت» عدوهم العتيد. وعلمت «جوليت» أن هذا
الفتى الفارع، الذى كان يحاورها عن نفسه هو روميو ومن آل
«مونتاج» وهلعت نفس العاشقين للخبر ولكن شرارة الحب كانت
قد اتقدت ونفذت إلى القلبين الشابين فى حرارة وقوة فهل تردهما
عن كأس الحب المترعة تقاليد موروثه وعداوات متأصلة. . هذا
ما يجيبنا عنه شكسبير فى هذه القصة الخالدة — فان «روميو» ما كاد
ينصرف مع رفاقه فى منتصف الليل، حتى عاوده الحنين إلى
المكان الذى ترك فيه قلبه، فانفلت عن رفاقه، وتسور الحديقة
التي تقع خلف قصر «جوليت» وجلس ليسكن ثأر قلبه، وما عثم
ان اشرفت «جوليت» من عليها قصرها على الحديقة، فابصرها
«روميو» ودار بينهما حوار طريف خال، يتمثل فى منظر الشرفه
الذى ننقله بأكمله من رواية «روميو وجوليت»

منظر الشرفة

(روميو) :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيتها

(تظهر جوليت في الشرفة)

ولكن صه ، ما هذا النور الذي ينبثق من الشرفة أنه الشرق
والشمس جوليت ..

أشرقى أيتها الشمس الساحرة ، ولتبدي بنورك القمر
الحسود . الذي كساه الكمد شحوبا وسقما . من أنك وأنت آيته
تفوقينه جمالا وفتنة .. كلا ، لا تكوني آيته ولا شبيهته ما دام لك
حاسداً .. ألا ترين أن كسائه أخضر سقيم ؟ فاخلعيه عنك
وابرئي منه .. انها مالكتي ؛ انها محبوبتي .. آه لو علمت ما أنا
منها ...

إنها تتكلم .. ولكنها لا تقول شيئا .. وما في ذلك .. ؟

فالعيون تتحدث .. وسأجيئها بلغة العيون ...

ما أجسرني في هذا الظن .. فالحديث ليس لي ...

فان نجمين فاتمين من نجوم السماء ، وقد شغلا ضرعاً إلى عينيها أن
تتلاً مكانهما ، في فلكيهما ، حتى يعودا .. وماذا .. لو أن عينيها
كانتا هنالك ؛ وكان النجمان مكان عينيها .. ؟ إذا لكسف ضياء
خديها نور هذين النجمين ، كما يكسف ضوء النهار ضوء المصباح ..

ولو أن عينيها كانتا في السماء

لأفاضتا على الكون نورا حتى ليغرد الطير حاسبا أن الفجر
لاح ... أنظر كيف تسند خدها إلى راحتها ...

آه لو كنت قفازاً في تلك اليد

فأمس ذلك الخد الأسيل ...

(جوليت) : — آه ...

(روميو) : — إنها تتكلم .

تكلم ثانية أيها الملاك البهي ..

فكأنك وأنت في علاك تفيض على الليل سناء وبهاء

رسول سماوى ذو أجنحة

تطلع إليه أعين البشر حائرة

وهو يسبق السحاب البطيء الكسول

ساجحاً فوق صدر الجوزاء ...

(جوليت) : — روميو ؟ .. روميو ؟ ... لماذا أنت روميو ... ؟

اهجر أباك وانكر اسمك

أما إذا لم تشأ فما عليك إلا أن تعاهدني حباً
وأنا أتخلي عن أسرتي ولا أكون من آل كايولت .

(روميو) : — (جانباً) أأدعها تستمر ، أم أقطع عليها الحديث
معلنًا وجودي

(جوليت) : — اسمك وحده عدوى

فأنت أنت وإن لم تكن من آل مونتاج
وما مونتاج ؟ فهو ليس يداً ولا قدماً ولا ذراعاً ولا
وجهاً ولا أى شئ آخر ... خذ إسماً غير إسمك
وما قيمة الإسم ... ؟

فما نسميه وردة سيبقى عاطراً تحت أى إسم آخر
وكذلك أنت ستبقى بكالك المحبوب الذى هو لك .
ولو لم تكن روميو

دع ذلك الإسم فأهبك نفسى ..

(روميو) : — وأنا آخذك عند كلمتك

سمنى الحب وأنا أسمى من جديد

من اليوم ان أكون روميو

(جوليت): — أى رجل أنت الذى تتخذ من الليل ستاراً

وتقف على خبيثة نفسى؟؟

(روميو): — لا أدرى بأى إسم أخبرك من أكون

فإسمى يا ملاكى العزيز بغيض إلى

لأنه عدو لك

ولو كان اسمى ورقة مكتوبة لمزقتها

(جوليت): — لم تستمع أذنأى من هذا الصوت إلا بضع

كلمات .

ومع ذلك فأنا أعرفه .

أأست روميو ومن آل مونتاچ ..؟

(روميو): — لا هذا ولا ذاك يا ملاكى الجميل .

ما دمت لا تحبين هذا أو ذاك .

(جوليت): — وكيف أتيت هنا خبرنى ولم؟ ..

فالأسوار عالية صعبة التسلق .

ووجودك هنا معناه الموت

إذا اكتشفك أقاربي وهم يعرفون من أنت
(روميو): — بأجنحة الحب الخفيفة تخطيت هذه الأسوار
فالحب لا يصدده حاجز صخري .

الحب يحسر على كل شيء
ولذا لن يستطيع أقاربك معي شيئاً
(جوليت): — إذا رأوك قتلوك

(روميو): — إن سيوف لحظك لأشد فتكا من عشرات
السيوف من أسيافهم ، أن تبسمي لي في كل شيء
عندى يهون وإن يكن عداوة ذويك
(جوليت): — لا أريد أن يعثروا عليك هنا

(روميو): — رداء الليل يخفي عن عيونهم
امنحيني أنت حبك ثم ليجدوني هنا
خفي لي أن تذهب حياتي ضحية كرههم
من أن يقتلني عدم حبك

جوليت): — ومن الذي أرشدك إلى هذا المكان . . ؟
(روميو): — الحب ، الحب هو الذي هداني إليه
فلقد أعارني النصيح وأعرته البصر

إننى لست ملاحاً ولكنى لا أتوانى عن المخاطرة اليك
ولو كنت فى أقصى البحار وأناها

(جوليت) : -- لو لم يكن قناع الليل يحجب وجهى

لرأيت حمرة الخجل تكسو خدى
بما قلته لك الليلة

فما كان ينبغى أن تسمع هذا القول
أما وقد سمعت فقل لى أتجبنى ... ؟

أنا أعلم أنك ستقول نعم . وسأصدق هذا القول منك
الا انك قد لا تكون صادقاً إذا أقسمت
روميو ، عزيزى ، إن كنت تجبنى حقاً

فقل ذلك باخلاص

أما إذا كنت تظننى سهلة المنال
فسأغضب وأعرض عنك ...

الحقيقة يا روميو أنى أهواك

وقد يجعلك ولعى هذا تعتقد أنى فتاة كسائر الفتيات
ولكن ثق يا روميو أنى سأكون أصدق حباً ممن
يظهرون بمظهر الحيلة والدهاء

(روميو) : — معبودتى ...

وحق هذا القمر المبارك

الذى يتوج هام هذه الأشجار بالفضة

(جوليت) : — لا تقسم بالقمر المتقلب الذى يتخذ أشكالا متغيرة

كل يوم فأنا أخشى أن يكون حبك متغيراً

كتغير القمر ...

(روميو) : — بم تريدنى أن أقسم ... ؟

(جوليت) : — لا تقسم بشيء مطلقاً ...

فإذا لم يكن من القسم بد

فلتقسم بحياتك الغالية التى أقدها كل التقديس

عند ذلك أو من بما تقول

(روميو) : — لو كان قلبى يا محبوبتى العزيزة ...

(جوليت) : — لا ، لا ، لا تقل شيئاً ... ولو أننى مبتهجة بك

إلا أننى لا أحب أن يتم هذا العهد الليلة

فهذا عمل طائش ، مفاجئ ، لا حكمة فيه ، خاطف كالبرق

الذى يومض ويختفى قبل أن يلتفت النظر إليه

طاب ليلك يا حبيبى

وليكن حبنا كالزهرة التي تتفتح حين يهب عليها نسيم
الصيف المنعش يوم نلتقي ثانية

طاب ليلك يا حبيبي ولتهدأ بما أنعم به من سلام ودعة

(روميو) : — أو تتركيني هكذا يا حبيبتي ؟

(جوليت) : — وأى شيء تريده الليلة ... ؟

(روميو) : — أن تعاهديننى على الحب والإخلاص

(جوليت) : — لقد عاهدتك قبل أن تطلب منى ذلك

وليتنى ما فعلت

(روميو) : — أو تستردينه يا حبيبتي ... ؟ ولم ... ؟

(جوليت) : — لا شيء إلا لأمنحه لك ثانية

فجئ عميق كالبحر ، وشغفى بك لا حد له

أسمع صوتا ينادى

إلى الملتقى يا حبيبي

سأعود بعد قليل فلا تذهب

(تخرج جوليت)

(روميو) : — يا لليلة المباركة السعيدة ...

لكم أخشى والوقت ليل أن لا يكون كل ذلك سوى حلم
فإن ما أحس أحلى من أن يكون حقيقة

(تظهر جوليت ثانية)

(جوليت) : — روميو، ثلاث كلمات فحسب ثم إلى الملتقى يا حبيبي

إن كنت في حبك نبيلا وقصدك الزواج

فبلغ رسولى الذى سأرسله لك فى الغد

متى وأين تربطنا قدسية الزواج

وسأضع عند قدميك كل ما أملك

وأتبعك يا سيدى أينما شئت أن تذهب

وإن كان قصدك غير هذا

فإنى أتوسل إليك أن تكف عن حبك

وتدعنى وأحزانى.

انتظر رسولى فى الغد

(روميو) : — فلتبتهج يا قلب ...

(جوليت) : — طاب ليلك يا حبيبي (تخرج)

(روميو) : — طاب ليلك يا حبيبتي

ولسكن ليلي لن يطيب

ما دمت عنى غائبة
فالحبيب يهرع للقاء حبيبته
مثلاً يهرع الصبية منصرفين عن دروسهم
والحبيب يفترق عن حبيبته
في خطى ثقيلة ... خطى التلميذ إلى المدرسة يعود
(تظهر جوليت في أعلا)

(جوليت) : — هست ... روميو ... روميو ...
من لى بصوت صاحب الباز الصائد
لأغرى طيرى على العودة ...
لو كان للحب أن يعلن
بدل أن يتخفى ويستتر
ويمر كالنسيم الهادى الرقيق لمزقت الفضاء بصوتى
فأبعث الصدى من مرقدہ
حتى يسمع صوته مردداً « روميو حبيبى »

(روميو) : — إنها حبيبة الروح تنادىنى
ما أحلى صوت المحبين بالليل
يتفرق فى الآذان كحلو النغم
عذباً شجياً

(جوليت) : -- روميو

(روميو) : -- حبيبتى

(جوليت) : -- فى أى ساعة من الغد أبعث اليك

(روميو) : -- فى الساعة التاسعة

(جوليت) : -- إذا إلى الغد . . وما أبعد الغد . .

لقد غاب عن بالى لماذا دعوتك ثانية . . .

(روميو) : -- فلا ظل هنا حتى تتذكرى

(جوليت) : -- وأنا سأظل ناسية حتى تظل واقفا . . .

فما أسعدنى بقربك

(روميو) : -- وأنا سأظل واقفا حتى تظلى ناسية

ناسيا بيتى وكل شىء سواك

(جوليت) : -- لقد كاد الصبح ينبثق

فبودى أن تروح

ولكن ليس بعيداً

وإنما كعصفور مدلل

فى يد صاحبه

ترخى له العنان

فيقفز مبتعداً

قفزة قفزة

كسجين مسكين

يرسف في قيوده

ثم بخيط حريري تجذبه إليها

فهى من فرط حبها له

تغار عليه حتى من الحرية

(روميو) : -- ليتنى كنت ذلك العصفور فى يدك

(جوليت) : -- ليتك كنته يا حبيبى ؟

ولكننى أخشى عليك من نفسى

طاب ليلك .. طاب ليلك ..

إن فى الفراق مرارة حلوة

تجعلنى حتى الصباح أردد « طاب ليلك » (تخرج)

طاب ليلك

(روميو) : -- فليرفرف عليك ملاك النوم

ولتتملاً نفسك سلاماً وأمناً

طاب ليلك طاب ليلك

أما أنا فإلى الأب الراعى

أقص عليه نبأى وألتبس نصحه

(ختام)

ويفترق الحبيبان على عدة أن يتراسلا في الصباح التالي، وما أن يشرق فجره الرطيب، ويعم نوره الأكوان، إلا ورسالة المحبة الواهية بين يدي حبيبها، وما أسرع ما يلبسها قلب «روميو» الخفاق قبل لسانه، فيحدد لساخرته الفاتنة موعد اللقاء، ومكان الاجتماع، في صومعة الأب الراعي، حيث يربطهما رباط الحياة الذي لا انفصام له رباط الزوجية المقدسة، ويطير «روميو» على أجنحة الشوق إلى الصومعة، ويفضي إلى الأب الراعي بمكنون صدره، سائلا إياه النصيحة ومستلهما من صائب رأيه السداد والتوفيق.. والأب لا يفتأ يحاور «روميو» عن نفسه، ويجادله في حبه، فلا يجد منه إلا عزيمة موطدا، وإيمانا صادقا، يحمله على معاوئته في تحقيق أربه، عسى أن يكون هذا العهد الوثيق بين القلبين الشابين، فاتحة طيبة تبشر بالوئام والسلام بين أسرتي «مونتاج» و«كابيولت»... وتقبل «جوليت» في براءة الملائكة يملأها الحب، ويفيض بها الجوى، فتسلم «روميو» زمام قلبها، وتعاهده على مذهب الراعي الأمين، أن تكون له الزوجة المخلصة الوفية أبد الدهر، ويبادلها «روميو» وعدا بوعد.

وتنصرف «جوليت» إلى قصرها بعد أن ربطتها «بروميو»

عروة الزواج المقدسة ، ويعود « روميو » فرحاً طروباً ليعد عدة الزواج على أن يلقى حبيبته إذا جن الليل ولكن المقادير التي يسرت للحميين سبل اللقاء ، لم تكن قد كشفت بعد عما خبأته لهما من مفاجآت ، فإن « روميو » لم يكد يخطو راجعاً ، حتى التقى بقريب « جوليت » الذي ثار ثأره عندما شاهدته لأول مرة في قصر « آل كابولت » وتحدى القريب « روميو » وأسرف في تحديه ، و « روميو » يحاوره ويداوره ، لمكانه من محبوبة الفؤاد ، ولكن صديق « روميو » الحميم تأخذه العزة فينبرى له يبارزه فيقع على أسنة رمحه ، مضرجاً بدمه ، فيثور ثأر « روميو » لما لقي صديقه فيشرع سيفه مدافعاً عن الدم المسفوك ، ولا يلبث أن يقع قريب « جوليت » ومثير هذه الشحنة على سنان هذا الرمح جثة هامدة . ويتناقل أفراد الأسرتين خبر هذه المبارزة ، فيخفون إلى مكان الملحمة ، يتقارعون بالسيوف ، ويتبارزون بالرماح والأسنة ، مما يشير فتنة شعواء تقض مضجع سيد « فيرونا وحاكمها ، فيقبل على الأثر ويأمر أعوانه بفض هذه الملاحم المهلكة ، ويقضى في الأمر قضاءه الذي لا مرد له ، فيأمر بنفى « روميو » من المدينة فوراً فإذا وجد له أثر في الصباح التالي قتل شر قتلة .. ووقع الحكم

على « روميو » وقوع الصاعقة ولكنه صمد له مادام في الليل بقية
للقاء الحبيبة ووداعها ...

ووصلت إلى جوليت أنباء مقتل ابن عمها فحزنت لفقده
ولامت « روميو » على خطيئته ، ثم جاءتها أنباء نفي حبيبها فأنستها
الفاجعة وهولها موت ابن عمها ، بل لقد أدمى قلبها الخبر حتى
حملت على ابن عمها ، وطارت نفسها شعاعا ، ولم تدر ما هي فاعلة
وظلت حائرة مقسمة الفؤاد إلى أن جاءها مع الليل حبيبها المشرّد
فأسكنت قلبها إلى صدره ، وفي قلب الليل البهيم تعاهدا من جديد
على الوفاء وجمعت قلبيهما قبلة كانت قبلة الوداع

سافر « روميو » إلى منفاه بعد أن وعده الأب الراعي أن يكون
صلة بينه وبين الحبيبة ، يوافيه بأنبائها ، ويحمل إليها أخباره
وأحواله ، وما أن رحل « روميو » حتى تقدم الخطبة « جوليت »
فتى شاب يجمع إلى ملاحاة الفتوة عراقة الأصل وسعة الغنى ،
ووافق الأب على الزواج وحدد له موعدا ، ووقعت « جوليت »
المسكينة في حيرة مربكة ، فهي تدافع عن نفسها حيناً ، وتدعى
المرض حيناً آخر ، وتستعين بأُمها طورا ، وبدموعها طورا آخر ،
ولكن هذا كله لم يكن ليعفيها من النزول على ما أراده له أبوها

من الزواج « بياريس » فلما ضاقت بها الحيل فزعت الى الأب الراعى تستلهمه العون والنصيحة ، فنصح لها أن تقبل وأعطائها دواء منوما تشربه ليلة زفافها ، فتبدو كأها ميتة ، فتخلص بذلك من أسر الزواج الجديد حتى يأتيها « روميو » فيأخذها في أحضانه الى جنة الحب الوارفة -- وكتب الأب « لروميو » بما اتفقا عليه وانفذ اليه رسائله -- ونزلت « جوليت » عند رأى الكاهن ، ووريت ليلة زفافها فى القبر بين الحزن واللوعة لفراقها .

وأنباء السوء أبدأ أسرع من أنباء الخير ، فقد سبقت اشاعة موتها رسائل الكاهن الى أذن « روميو » فخر مغشياً عليه ، واعد لنفسه سماً زعافا يشربه وأسرع الى مقبرة الحبيبة يقبلها قبلة أخيرة وجلس الى جدشها الفانى يغرقه بدموعه الحرى وأقبل « بياريس » يطوف بقبر زوجته الزاهبة ، فالتقى « بروميو » الواله فتبارزا وسقط « بياريس » على رمح « روميو » قتيلاً ، وشرب « روميو » السم الزعاف ونام نومته الأخيرة فى أحضان محبوبته - واستيقظت « جوليت » فهاها الموقف ورأت حبيبها والكأس فى يده فعلمت أنه راح ضحية السم من أجلها - ودت لو أن فى الكأس بقية وأقبلت على شفتى حبيبها تلشمها لعل السم ينتقل اليها - وسمعت

ضجة مقبلة فانتزعت خنجرأ وأغمدته في صدرها ، وهكذا وفي
الحسينان عهدهما وماتا على الحب ، كما عاشا له . . . وأقبل الكاهن
يرى نهاية ما أعد فإذا به يفاجئ بخاتمة لم يكن يتوقعها ، فخر مغشيا
عليه يبكي هذا الشباب الناصر ضيعته الاحقاد وطوحت به
الآحن . . . وعاش الكاهن ليروى قصة الحسينين ويلقنها للأجيال
درسا للوفاء السرمدى والحب الخالص الأبدى .



(٣)

الملك لير King Lear

وتلك أخرى من روايات شكسبير ، وفواجهه المشهورة ،
مثل فيها الشاعر عواطف متضاربة من رحمة الآباء ، وعقوق
الأبناء ...

« لير » ملك شيخ كان يحكم بريطانيا ودوقياتها ، فلما بلغ من
العمر عتياً ، أحب أن يريح نفسه من أعباء الحكم ، فجمع إليه بناته
الثلاث « جونزل Goneril » الكبرى ، و « ريجان Regan » الوسطى
« وكورديليا Cordelia » الصغرى وسألهن جميعاً عن مبلغ حبهن
له ، وقال لهن انه سيوزع عليهن ملكه بنسبة إفصاحهن عن محبته
— وكانت « جونزل وريجان » ذاتي دهاء ورياء ، أما « كورديليا »
ف ذات إخلاص ووفاء — عرفت الاختان الكبرى والوسطى ،
كيف تصانعان أباهما حتى تفوزا بالملك العريض ، وإحياه

المبسوط ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون .

فقالت « جونزل » إن حبك يا مولاي ان تستطيع الكلمات أن تفصح عن مكنونه ، فأنا أحبك أكثر من نور عيني ، بل أكثر من الحياة وأشد من الحرية .

وخذعت الكلمات المعسولة الأب السليم الطوية ، وظنها صادرة من القلب ، فأفاء عليها جزاء وفاقا ثلث ملكة لها ولزوجها ، تحكم فيه كما تحب وتختار .

وقالت « ريجان » إن ما قالته « جونزل » لن يبلغ في قوته بعض ما أكنه لك من حب يا مولاي ، فإن كل نعيم في الحياة زائل إلى جانب نعيم حبك أي أبي ومولاي .

وفي نشوة من سحر كلمات فتاته ، أنعم عليها الأب الرفيق ، بثلث ملكة الثاني لها ولزوجها ، ينعان فيه رغداً .

ولما جاء دور الصغرى « كورديليا Cordelia » ولم تسكن ذات حظ في الرياء والمصانعة ، بل هي مثال البراءة والإخلاص ، لم تزين من القول ما زينت أختها ، بل اكتفت في التعبير عن حبها بما توحيه إليها الفطرة السليمة ، والواجب الأبوي ، « أحبك يا أبي قدر ما يفرضه على الواجب نحوك بلا زيادة أو نقصان » ، ولم

ترق هذه الإجابة البسيطة غير المنمقة في نظر الأب ، فأمهلها عليها
تحسن قولاً ، ولكنها أصرت على موقفها ؛ فخرمها من نصيبها في
الملك ، وقسمه بين أختيها .

خرجت « كورديليا » من المعركة المادية خاسرة ، ولكن
الحسرة كانت تعصر قلبها المخلص على والدها الحبيب ، الذي غره
الزيف ، وبهره البريق ، فسلم بيده ملكه ووصلجانه ؛ لمن لا يحبه
ولا يرحمه .

وتزوجت « كورديليا » من ملك فرنسا ، وذهبت معه لتجد في
حبه لها خير العوض عما فقدت ، وفي اخلاصه جزاء لوفائها .

وبقى « لير » بين بنتيه الكبرى والوسطى ، وظن أنه ملاق
من حبهما وعطفهما في شيخوخته ما يفسيه آلام الحكم ، ومتاعب
الماضي . . أليس قد أغدق عليهما راضياً مختاراً ملكه ووصلجانه .
اتفق « لير » على أن يقضى وحاشيته المؤلفة من مائة فارس ،
أيامه الباقيات مناصفة بين بنتيه ؛ ولكنه ما كاد يتم أيامه الأولى
عند « جونزل » حتى ضاقت به ذرعا ، وبدأت تتكشف نفسها
الخبيثة على حقيقتها ؛ فأمنعت في مضايقة حاشيته ، وأمرت خدمها
بالاستهتار في استجابة أوامره ، ولم تترك في أحبولة عقوقها بابا

إلا طرقة في اصطناع أسباب المضايقة ، والحجر على حرية الملك
الشيخ ، فلما اعيتته كل حيلة في الإصلاح ، وعمل صبره ، شكا إليها
الأمر ، فنهزته وأمرته أن يقال من حاشيته ، بل وأن يتنازل عنها
اكتفاء بخدمها وحشمها ، فذكرها بحبها له ، وعهدا معه ،
فأشاحت بوجهها وزادها الرجاء صدوداً ، وأمرته أن يذهب إلى
أختها ، فقد ضاقت به ، وبمطالبه صدرأ . وظن الملك الشيخ أن
«ريجان» ستكون أبر به من أختها ، وأحفظ لعهد منها ، ولكن
ظنونه خابت ، ورجاه تبخر ، فإنه ما كاد يصل إلى قصر «ريجان»
حتى قوبل بالصدود والإنكار ، فلم يقابله أحد مع علمهم بمقدمه ،
بل إن «ريجان» نفسها لم تهش لمقدمه ، ولم تسرع للقاءه ، بل أمرت
من أخبره أنها غائبة ، فلما ألح في طلب لقاها جاءته متجهمة حانقة ،
وسلقة بألسنة حداد ولامته على سوء تصرفه مع أختها ، وأمرته
أن يعود أدراجه إلى أحضانها ، وأن ينزل عند رأيها ، وأن يخفف
من غلوائه ، وأن يطرد حاشيته ، وجاءت «جونزل» وزوجها
أثناء الحديث ، فاجتمعت الأختان على تعنيفه والتقليل من قيمته ،
فركن إلى الشدة معهما ، فألحا في الإنكار لحقه ، ومال إلى التوسل
والبكاء ، فما لان لها قلب ، ولا سالت دمعة ، بل زادها ضعفه

استكبارا وإصرارا على أن يذل لأمرهما ، ويخضع لحكمهما —
فهاجت في الملك بقية من كبرياء مخطمة ، خرج من قصرهما نائراً
مهتاجاً في ليلة عاصفة من ليالى الشتاء التى لا ترحم — وحاول رجاله
تهديته نائره ، والتخفيف عنه ، فلم يأبه لقولهم ، وخرج هائماً على
وجهه فى هذه العاصفة الهوجاء ، لا يصحبه إلا نديمه الذى أنى أن
يترك سيده ومولاه فى أيام الشدة والبأساء ، بعد أن نعم معه فى أيام
العز والرخاء .

وفى ما يلى نقتبس من قصة « لير » ، منظر العاصفة بأكمله لنضع
أمام القارئ صورة صادقة ؛ لما صور به شكسبير نفس هذا
الشيخ الذى احتمل من عقوق بناته ما أنساه قسوة الطبيعة ..



الملك لير

المنظر — عاصفة هوجاء

(يدخل « لير » ومعه نديمه)

(لير) : — إعصفي أيتها الريح ودمري بجناحيك ؛ ثورى
واغضبي ، وأنت أيتها السيول والأمطار الهاطلة ،
تدفي حتى تغمرى بأموالك الدور فتغرقها ؛ وأنت
أيتها النيران المتأججة المندلعة التى تسبق بالسنتها
الصواعق ... أحرقى شيبتي ... وأنت أيتها الرعود
العاصفة ، إسحقى الأرض وامحقى البشر ، واقتلى الأجنة
فى بطون أمهاتها ، تلك الأجنة التى يخرج منها
الإنسان الجحود .

(النديم) : — إن ماء القصر المقدس تحت سقف بيت دافىء خير
من هذا المطر المنهمر فى الخارج . أدخل يا مولاي
وسل بناتك الصفيح فهذا ليل لا يرحم العاقل
ولا المجنون

(لير) : — روح عن نفسك بهذا الصياح ، وأنت أيتها النار ،
 أرسلى حممك ، وأنت أيتها الأمطار ، أنزلى هاطل
 مائك ، لن أشكو منكم ، فأنتم لستم بناتى ؛ لن أومك
 أيتها الطبيعة القاسية ، فلست من ورثته ملكى وأوليته
 حنانى وعطفى ، ليس لى عليك من سلطان ، ولا لى فى
 عنقك دين ، فلاترسلى إذن صواعقك على رأسى ...
 أنا العجوز المهدم المنبوذ ، الذى لا حول له ولا
 سلطان ، سأحتملك — وإن كنت لا أستطيع أن
 أتهمك بالجحود والنكران ، فلن يمنعنى هذا من أن
 أحمل عليك كسوط عذاب فى يد بنتين غادرتين —
 ساعدتيهما بإرسال أهوالك على هذه الشيبة الفانية ،
 إليه ما أبشع هذا ...

(النديم) : — إن بيتاً يأوى الإنسان فى هذا الجو هو كالدرع يحميه
 إن الرجل الذى يستعير لقلبه ما فى أصابع قدميه من
 رقة تنغص عيشه حبة من قمح مهما بلغت من دقة ،
 وما من امرأة جميلة إلا وتغير من ملاحظها أمام المرأة
 لترى أى الأوضاع أصلح لظهورها .

(لير) : — سأ كون أنموذجا للصبر وإن أقول شيئا

(كنت) : — من هناك ...

(النديم) : — عاقل ومجنون

(كنت) : — يا للقدر القاسى ، الذى يدفع بك يا مولاي

للتعرض إلى مخاطر وأهوال هذا الليل البهيم ، إن
الوحوش الضارية التى تتخذ من الليل جنة قد هرعت
إلى كهوفها فزعاً من هذا الهول ، إن أهوال هذه الليلة
من نيران متأججة ، وحمم متساقطة ، ورعود قاصفة
مهلكة ، وريح صرر عاتية ، وأمطار متدفقة جائحة ،
لم تصادفنى فى حياتى قبل هذا اليوم ولم أسمع بمثلهـا ،
إنها فوق قوة البشر ، ولن يستطيع إنسان كائناً من
كان احتمالها

(لير) : — دع الآلهة القوية ، التى تثير هذه الحرب الضروس

فوق رؤوسنا ، تستخرج من بين البشر أعداءها ،
فلترتعد فرقاً أيها التعس الذى يطوى بين جنبيه أسرار
جرائم لم تكتشف بعد ولم تصل إليها يد العدالة ،
إخف يدك الداميتين أيها المخادع ، وكذلك أنت

يامدعى الفضيلة، والفضيلة منك براء، ولتقطع أو صالك
رعباً أيها النذل الخئون، يامن اتخذت الصداقة ستاراً
لجرائمك وآثامك ضد البشر. أيتها الجرائم الشاوية
فى الصدور، مرقى تلك الحجب التى تخفيك وابرزى
للعيان، واستصرخى هذه المنذر الرحمة ! إني رجل قد
طغت أرزأؤه على آثامه ..

(كنت) : — وا أسفاه يا مولاي ، أنمشى هكذا عارى الرأس ،
إن بالقرب من هذا المكان كوخاً يمكننا أن نلجأ إليه
من هذه العاصفة ، فلتستريحاً هناك بينما أعود إلى هذا
البيت الجاحد ، الذى بز فى الجحود أحجاره صلابه
وقسوة ، لأفرض على أهله أدب المجاملة الذى تجردوا
منه .. هذا البيت الذى منعت من دخوله منذ لحظة ،
وأنا أسأل عنكم .

(لير) : — لقد بدأت أستعيد الحس .. هيا يا ولدى .. ما بك ؟
أيؤذيك البرد ؟ نعم ، فأنا أحس قسوته ، أين هذا
الكوخ يا صديقى ؟ إن نظرتنا إلى الأشياء تتغير
وتتبدل حسب حاجتنا إليها ، فالشيء الذى نزرديه فى

بعض الأحياء قد يكون ذا قيمة في وقت آخر ؛
هيا أرنا الطريق إلى هذا الكوخ ! إني وإن كنت
مفعم القلب حزينه فلا زلت أجيد في نفسي متسعا
للإشفاق عليك يا ولدى .

(النديم) : -- هيه هيه أيها الريح والمطر ؛ إن من قل عقله ، أو
ندر وجب أن يقنع بما يأتي به القدر فكل يوم
ينزل المطر ...

(لير) : -- صدقت يا ولدى هيا بنا إلى الكوخ

(يخرج لير وكنت ويبقى النديم وحده)

(النديم) . -- سأقص نبوءة قبل أن أنصرف ؛ عند ما تصبح
مواعظ القسس كثيرة الكلام قليلة الفكر ، وعند ما
يغش صناع النبيذ نبيذهم بالماء ، وعند ما يضرب النبلاء
المثل فلا يغرقون في الدين ، وعند ما يبطل حرق
الكفار ويبدأ حرق العشاق ، وعند ما يصبح كل حكم
في القانون عادلا ؛ وعند ما يخلص السادة من الدين
وينمحي الفقر بين الفرسان ، وعند ما تقطع السنة
التمامين ويبطل اختلاط النشالين بالجموع ؛ عند ذاك

تقوم قيامة العالم ، ويأتى الوقت الذى تسير الناس فيه

على أرجلهم . (يخرج)

(المنظر أمام الكوخ) يدخل لير وكنت والنديم

(كنت) . -- هذا هو الكوخ يا مولاي ، أدخل فإن قسوة هذا

الليل ليس فى مقدور البشر احتمالها .

(لير) . -- دعونى وحدى . .

(كنت) : -- مولاي لا بد أن تدخل هنا

(لير) : -- وهل تحطم العاصفة صدرى ؟

(كنت) : -- فلتحطم صدرى أنا ، تقدم يا مولاي

(لير) . -- أظن هذه العاصفة ستوهن منا العظم وترق منا

الجلد ، هى كذلك بالنسبة لك على الأقل ، ولكن

من يصيبه المرض العضال لا يحس وطأة غيره من

ألم ، فأنت قد تهرب من الدب ولكن اذا لم يكن

أمامك سوى البحر المتلاطم الأمواج فليس إذاً من

من ملاقاته الدب حيلة ، إن العقل الخلى يزيد الجسم

حساسية ورقة ، وأن العاصفة التى تضطرب فى رأسى

قد أضعفت كل حواسى فلم أعد أشعر بما حولى . لم

أعد أشعر إلا بهذا الجحود ، جحود بناتى وفلذة كبدى

أليس هذا الجحود أشبه بنكران الفم للجميل فيعض
اليدين التي أطعمته ؛ ولكنى سأنتقم وسيكون انتقامى
مرأاً لا لا - لا داعى للبكاء ؛ كفى بكاء . . .
اتطردانى فى مثل هذه الليلة . . أنتم بنتاى . . هات
أيتها الريح ما عندك فسأحتملك ؛ أفى مثل هذه الليلة
تطردان أبابا الكهل . . أبابا الرحيم الذى أعطاكما
كل شئ ، أوه هذا يكفى ، ولندع ذلك الحديث فإنى
أخشى على نفسى من الجنون

(كنت) . — مولاي أتوسل اليك أن تدخل

(لير) . — دعنى واذهب أنت وخذ راحتك ؛ إن هذه العاصفة
ستنسبني آلاماً أشد على نفسى من وقعها ، ومع ذلك
فسأدخل . .

(لير) : — (إلى النديم) أدخل يا ولدى ، أيها الفقير الذى
لا مأوى له ، هيه . . أدخل سأصلى ثم أنام .
(يدخل النديم)

أيها التعساء الذين أنهبكم العرى فاتخذوا تحت
هذه العواصف مأواهم ؛ كيف تحتملون هذا الهول
وهل تدفع عنكم قسوة هذا الليل العاصف ملابسكم

المهلهلة ، وأثمانكم البالية ، وأجسامكم الناحلة التي
أنهكها الجوع ، وأضنتها الفاقة ، لم أكن أعني بكم أيام
عزى وجلالى ، أما الآن وقد عرضت نفسى لما
يتعرض له هؤلاء التعساء وأحسست إحساسهم
فسأعمل على نصرتهم وأحض الناس على رحمتهم .
(يدخل)

وما أن يدخل « لير » الخباء حتى يقيم عليه رجاله حرساً ،
كى لا يخرج ويتعرض لقسوة الزمهرير ، ويسرع بعضهم إلى
« كورديليا » ملصكة فرنسا يبلغها ما صار إليه حال أبيها ، فتأخذها
الشفقة عليه ، ويغلبها الحنين والجزع ، وتنسكب دموعها مدراراً ،
وتسرع بحيشها لنجدة أبيها والانتقام من أختيها . . . وتلتقى
« كورديليا » بالأب هائماً على وجهه بين الحقول ، قد أذهب الهول
عقله ، فتأخذه بالرفق ، وتسلمه إلى أطبائها يعنون به . والأب فى
خباله لا يدري ما يقول ؛ فهو تارة يركع عند أقدام « كورديليا »
طالباً الصفح والغفران ، وطوراً يبكى ويضحك خوف أن يكون
ما يراه خيالاً ، هياً له عقله الضائع ، ورشده المفقود ؛ وما
يزال به الأطباء حتى يشفى ، وتقبله « كورديليا » قبلة كلها الحنو

انتدسيه آلامه .. وتذهب « كورديليا » لحرب أختيها انتقاما لآيها
فتموت في السجن ، بعد أن تنهزم قواتها ؛ ولا يلبث « لير » إلا
قليلا حتى يلحق بابنته ، ولكنه قبل أن يموت تنتقم له العناية
الإلهية ، من بنتيه العاقبتين ، فتقتل إحداهما الأخرى بالسهم ،
لتزيحها عن طريق حب آثم ، ولكن قصة « جونرل » ومؤامراتها
لا تخفى على زوجها ، فيقبض عليها ويودعها السجن حيث تنتهى
حياتها بيدها فى ثورة من الغضب تملكها على أثر فشلها فى الحب
وهكذا أبت العناية الإلهية إلا أن تنتهى حياة العاقبتين ، نهاية هى
أقل ما يستحقان من تعذيب وتمكيل .



عطيل Othello

« عطيل » مغربي أسود، ذو عقل راجح، ولسان فصيح ذرب، قائد حنكته التجارب، اشتهر في حربه ضد الأتراك، لصالح «دوقية البندقية» Venice وعلا ذكره، وقلده الدوق مراتب الشرف، ومنحه الأوسمة والنياشين.

وكان «عطيل» هذا صديقا للسنيور «برابنشيو» أحد شيوخ البندقية، يتردد على بيته، فيجد السنيور في حديثه طلاوة، وفي صحبته غبطة وبهجة..

وكان للسنيور بنت وحيدة يحبها الحب كله، ويؤثرها الإيثار كله، تدعى «ديدمونة» تتزاحم على بابها الخطاب، فتردهم خائبين ويتنافس في الفوز بها الشبان من أهل الوجاهة والثروة، فتدل عليهم، وتثير فيهم التنافس والمغالاة في مهرها، وعلى حين فجأة علقت

« ديدمونة »، بعطيل حباً ، وتيمت به غراماً ، أعجبت بفروسيته ،
وسحرت ببلاغته ، وأغوتها قصصه وأسفاره ، فسلمت له عنانها ،
وارتضته لنفسها بعلا ، ولم تأبه لسواد بشرته ، بل رأت وجهه في
في عقله وكماله ، وعشقت روحه الشفافة ، وبطولته الخارقة ، وبنى
« عطيل » بديدمونة سرّاً ، وارتبط معها برباط الزواج المقدس ،
واحتفظ المحبان بالخبر في صدريهما ، ولكنه ما لبث أن وصل
أسماع الأب ، فثار وشكا المغربي لمجلس القضاء في البندقية ، متهماً
إياه باستعمال السحر في إغواء إبنته ، وحملها على زواجه بدون
رضى أبيها ...

وقيل أن يدعى عطيل للمحاكمة ، جد للبندقية من الأحداث
في الخارج ما دعا إلى الاستعانة بعطيل في حرب شنها الأتراك على
قبرص ، فدعى عطيل ليرد على الأمرين معا ، وأعطيت للسنينور
« برابنشيو » كل الحرية في توجيه اتهامه ، ولكن عطيل رد
في بساطة وإخلاص ، أن سحره كان قصصه البارع ، وكمالاته
الحلوة ، وأن شعورته كانت انباء فروسيته ، ومعارك نضاله ، وأن
قلب ديدمونة واذنيها قد ملكتهم نشوة الحديث ، واخضعتهم
لسلطانه ، فهامت به ، وبادلتها حباً بحب ، وصادقته ديدمونة على

كل كلمة قالها السنيور « باربنشيو » إلا أن يبارك حبهما المقدس وزواجهما المتين — وقبل عطيل المهمة التي أقيمت على عاتقه ، وأعد عدته للسفر إلى قبرص ، وصحب زوجته معه ، وصحب معه « أياجو » وهناك وجد صديقه « كاشيو » رسول هواه القديم بينه وبين « ديدمونة » — وخلت رتبة في جيش « عطيل » ، فرأى أن يرقى إليها « كاشيو » ، فأحفظ هذا « أياجو » الضابط القديم وظن أن « عطيل » يؤثر « كاشيو » عليه ، وهو أقدم منه ، وثار ثأره لما توهمه من أن « عطيل » يظهر الود والمحبة لزوجته « إميليا » ، فأقسم لينتقم ، وأعمل فكره وعقله في حبك مؤامرة دنيئة . يكون ضحيتها « عطيل » و « ديدمونة » و « كاشيو » جميعاً لينخلو له الجو ...

وكان « أياجو » بطبعه دساساً عريقاً في الدس ، فحاك شباكاً بتفنن وبراعة ، ورمى بها في طريق « عطيل » الثبيل ، حتى إذا وقع في الأحبولة ، ضيق عليه الخناق حتى أخرجه عن رشاده ، وهماً له القبيح حسناً ، والحسن قبيحاً ...

اتخذ « أياجو » طريقه إلى قلب « عطيل » باستشارة غيره ، وإيهامه أن زوجته المخلصة « ديدمونة » تستغفله وتستغل محبته

وصراحتة، وتبادل « كاشيو » المحبة ، وتمكنه من نفسها في غيبة « عطيل » ... واتخذ لمد أحابيله طرقاً شيطانية ، فبدأ بالإيقاع بكاشيو في ليلة حراسته ، وسقاه الخمر ، وسلط عليه من أسخطه حتى حمله على مبارزته ، وأثارت المباراة شغباً استيقظ على صخبه القائد « عطيل » ، فعاقب « كاشيو » بأن نحاه عن عمله ...

وأفرخت مكيدة « أياجو » ، فاصطنع المودة « لكاشيو » والنصح له ، فزين له أن يطرق باب « ديدمونة » لتوسط له في الصلح مع « عطيل » ، وأن يلازمها في غدواتها وروحاتها مستعطفاً حتى يلين قلبها ، فتحمل « عطيل » على الصفح عنه ، وإعادة إلى مركزه ، ومن ناحية أخرى استغل معرفته بما يقوم به « كاشيو » ، وبما يدور بينه وبين « ديدمونة » من حديث في استشارة غيره « عطيل » وتنبيهه كصديق إلى الخطر من تردد « كاشيو » على بيته ...

وما زال « أياجو » بعطيل ينصحه ويحذره ، حتى اختلط عقله ، وظن الوهم حقيقة فثار ثأره ، وطالبه بالدليل ، فمد له الشيطان في حبل الغواية ، وأسعفته زوجته « أميليا » بمنديل كان « عطيل » قد أهداه إلى « ديدمونة » ليلة زواجها ، وسرعان ما اقتنصه النمام وقدمه لعطيل كدليل على الخطيئة ، وسرعان ما حبك قصصاً

وحوادث غرامية بين امرأة أخرى وبين «كاشيو»، وأسمعها
«عطيل» على أنها أحاديث غرام بين «ديدمونة» و«كاشيو»،
فثارت ثورته، وهدر كالفحل، فقد زمام عقله، واستعرت نيران
الغيرة بين جوانبه، فأقبل على «ديدمونة» العفة الطاهرة، يطالبها
بالمنديل وينعتها بكل قبيح مردول من الصفات، ولما لم تستطع له
دفعاً، هجم عليها فخنقها بيديه، فذهبت روحها إلى خالقها تشكو
ظلم الإنسان، ولكن العناية الإلهية حطمت نفس عطيل، وهدت
كيانه، فقضى على نفسه بالموت بعد أن عرف حقيقة ما أوقعه
فيه اضطراب ذهنه، من تأثير سم «أياجو» النمام... وقضت على
«أياجو» الدساس بالموت، جزاء وفاقأ لما حاكته يده من
إثم وعدوان...

وفيما يلي منظر من رواية «عطيل»، أعمل فيه «أياجو» كل
حيلة لإقناع «عطيل» بمسلك زوجه المريب، وعلاقتها الآثمة مع
«كاشيو»، وفيه تبدو براعة شكسبير في تصوير الفتنة والغفلة التي
تعتري العظماء أحياناً فتكون سبباً في حتفهم...

فصل من عطيل

(عطيل) : — إيه أيتها الشيطانة الفاتنة ، إن الهلاك يكتسح
روحي . ولكني أحبك ، وعند ما لا أحبك ، تكن
الدنيا لدى اضطرابا وفوضى

(أياجو) : — فديت يا مولاي

(عطيل) : — ماذا تقول يا أياجو

(أياجو) : — أ كان كاسيو يعلم شيئا عن هواك ، حينما كنت
تبادل مولاتي الصباية والهيام ؟ !

(عطيل) : — بلى كان يدرك ذلك . ولكن علام هذا السؤال

(أياجو) : — لا شيء أكثر من أننى أريد أن أقنع خواطري
العابرة .

(عطيل) : — وفيم خواطرك هذه يا أياجو

(أياجو) : — لست أعتقد أنه كان متصلا بها

(عطيل) : — بلى !! وكان الصلة بيننا

(أياجو) : — حقاً؟

(عطيل) : — حقاً . نعم حقاً . أترى أى شىء فى ذلك . أليس

هو بالرجل الشريف؟؟

(أياجو) : — شريف . يا مولاي

(عطيل) : — شريف ، نعم شريف

(أياجو) : — لا أعلم شيئاً آخر

(عطيل) : — ماذا تظن؟؟

(أياجو) : — أظن يا مولاي

(عطيل) : أظن يا مولاي؟ إنه وأيم الله يردد أقوالى . حتى كأن

هنالك غولا يحتم فى خواطره . فلا يستطيع من

هولها أن يبوح بها . أتقصد يا هذا أمراً معيناً؟؟

فقد سمعتك تقول الآن حيث ترك كاسيو زوجى ،

إنك لا ترتاح لذلك ، فما الذى لا ترتاح إليه؟؟

وحين أخبرتك أنه كان الصلة بيننا أيام وجدى

وغرامى ، هتفت أحقاً ذلك؟؟ ثم تجهمت أسارىك

كأنك تخفى فى نفسك أمراً مريعاً ، فإن كنت لى

محباً مخلصاً ، فانفض إلى دخيلة نفسك .

(أياجو) : -- مولاي . إنك تعلم أنني لك المحب المخلص
(عطيل) : -- أعتقد ذلك . وأعلم أنك جم المودة والصدق .
وأنك تزن كلماتك قبل أن تفوه بها . وعلى هذا ،
فترددك وأاناتك في حديثك ، تشير في نفسى القلق
والاضطراب ، فالتليخ عند السوقى الأجوف ،
عادته وجبلته ، ولكنه عند الرجل الكريم المذهب ،
سر دفين فى أعماق قلب ، يصعب على العواطف أن
تكبح جماحه . وتكشف سره .

(أياجو) : -- إن يك ذلك عن كاشيو ، فإنى أقسم أنه رجل شريف
(عطيل) : -- وأنى أعتقد ذلك
(أياجو) : -- الناس يا مولاي ، يجب أن يكون مخبرهم كما تكون
سريرتهم ، إذ لا ينبغى تضليل الناس
(عطيل) : -- هنالك بعض من الناس ؛ يجب أن يكون
مظهرهم كمخبرهم .

(أياجو) : -- إذا احسب يا مولاي ، أن كاشيو رجل شريف
(عطيل) : -- أجل ؛ أجل ؛ إنك تعنى أمراً ما ، فبحق عليك ؛
ألا ما بحث لى بما تكسبه فى نفسك ؛ ما دمت تلج

بهذه الإشارات ؛ فحدثني إذن بأسوأ ما يجول بنفسك
وبأسوأ ما يكون التعبير .

(أياجو) : — حسنا يا مولاي ؛ ولكن عفواً ؛ فإنني وإن كنت
رهن إشارتك في كل ما تأمر به ؛ فما أنا بمستطيع ان
اقول ما يمتنع حتى العييد عن قوله ؛ ومالك تصف
خواطري بالضعة والزيف ؟ فأى مكان في الوجود
لا يتسرب اليه الدنس ؟ ! ومن ذا الذي أوتى قلباً
طهوراً لا يتغلغل فيه الرجس ويظل يكن فيه كأنه
في بلاط الملوك يجاور الرفيع من الهواجس والخطرات
(عطيل) : — إنك إذا علمت شيئاً يسوءني ، وامسكت عن
الإفضاء به إلى ؛ فأنت يا اياجو كالمآمر ضدى

(أياجو) : — استمحيك العذر يا مولاي ، فربما اكون مخطئاً في
هواجسي وظنوني ، وإنني اعترف انني مجبول على
التفكير في وهم الأخطاء ، وطالما خلقت من خيالات
الظنون أخطاء لا ظل لها من الحقيقة ، فلا تقم لهذا
الامر وزناً ، ولا تخلق لنفسك متاعب من وراء من
لم يتثبت من هواجسه وملاحظاته ، فليس من الخير

إليك ، ولا من هدوء نفسك في شيء ، كما ليس مما يخلق
برجولتي وشرفي وسدادى في شيء ، ان أجلو لك
السر الدفين .

(عطيل) : — ماذا تعنى بذلك ؟؟

(اياجو) : — إن السمعة الحسنة للرجل والمرأة يامولاي ، هي أئمن
ما تتحلى به نفوسهم ، فمن يسرقني نقودى ، لا يسرق
شيئا ، فهى لى ، وهى له ، وهى نهب مشاع للجميع .
ولكن الذى ينتزع منى سمعتى الطيبة ، يسرق منى ما
لا يغنيه ، وما يجعلنى أبأس العالمين طرأ .

(عطيل) : — اقسم غير حانث لأقفن على خواطرك هذه !!

(اياجو) : — إذا كان قلبى مكشوفاً بين يديك ، فلن تستطيع أن
تدرك خواطرى فى هذا الأمر ، فكيف بك وهو بين
حنايا ضلوعى

(عطيل) : — آه

(اياجو) : — حذار يا مولاي من الغيرة فهى ذلك الوحش
الضارى ، ذو العيون الخضراء الذى يسخر من فريسته ،
ويشير فيها كل يوم ضروبا من الشك ، ويلهو بشجوها

المتزايد ، فالذين يعلمون خيانة أزواجهم ولا يحركون ساكنا ، سعداء حقا ، إذا قورنوا بمن يتعلقون بحبهن ، ويتشككون في إخلاصهن ، وتمر بهم فترات من الشقاء ، ولا يصلون في نهاية ذلك إلى دليل حاسم

(عطيل) . — يا للشقاء ...

(اياجو) . — إن الفقر إذا صحبته القناعة فهو الغنى الذى لا حد له . ولكن الغنى الذى يخشى الفقر ، هو الفقير المدقع ، حمى الله ذوى من شر الغيرة .

(عطيل) : — لم هذا ؟؟ لم كل هذا ؟؟ أو تحسبني أظل طول حياتي غيورا ؟؟ أأخلق دوما شكوكا جديدة ؟؟ كلا ، كلا ، إذا شككت يوما فلا بد من أن أضع حداً لذلك ، ولا تعدنى أكثر من حيوان طليق ، إذا الفيتنى أحصر خواطرى فيما لا طائل فيه ، بما رأيته في سيرة زوجى ، وإنك لن تشير غيرتى إذا قلت ، بأن زوجى جميلة ، مكفولة الرغائب ، تحب الأنس ، صريحة في حديثها ، تغنى ، وتلهو ، وترقص ، فإن كانت المرأة صالحة زادت هاته السمائل كالا ، ولن

أعتقد بأنها تخونني ، لأنني قليل المحاسن ، فقير بما
يمهر العيون اللوامحظ ، كلا ، كلا ، يا أياجو . يجب
أن أتلس الدليل قبل أن أتشكك . فإذا قام الدليل ،
لم يبق غير أن انصرف عن حي ، أو أتمسك
بأهداب الغيرة .

(اياجو) : -- إنني سعيد بذلك . فالآن أستطيع أن اظهر لك
حي الذي اكنه لك ، وان اقوم بواجبي نحوك بروح
الصراحة المطلقة . فواجب الوفاء يحتم على أن أجابهك
بالحقيقة ، إنني لا أملك الدليل ، ولكن راقب زوجك
ولا حظها إذا حضر كاشيو ، واقفح عينيك ، وكن
كأنك لست بالغائر ، ولا بالغافل عما يجري حولك ،
ويا ويح نفسك السمحة ، تساء وتخرج من أجل
فضلها وكرمها ، وأنت لا تعلم طبيعة نساتنا ، فهن في
«فينيس» يشهدن الله على سيئاتهن ، ويخفين حياتهن عن
أزواجهن ولا يتركن سيئة إلا ويقترفنها ، فلا يعلم
بذلك إلا الله

(عطيل) : -- أتقول ذلك ؟ ؟

(أياجو) : — لقد غررت بوالدها حين تزوجتك ، وحين خافت
نظراتك ، فأحببتك لذلك حباً جمّاً .

(عطيل) : — أو هكذا صنعت ؟ ؟

(أياجو) : — أعميت عن ذلك ، أتخسبها وهى صغيرة غريرة ،
تظهر بهذا المظهر أمام أبيها الغامض النظرات . والذى
حسب أنها تزوجتك بفعل السحر . أنا المعلوم على
ذلك ، فاصفح يامولاي عمن تربطه بك أو اصر الحب
والولاء .

(عطيل) : — إننى مدين لك بالحمد إلى الأبد .

(أياجو) : — إنى أرى هذا الأمر قد بلبل آراءك .

(عطيل) : — لا شئ من ذلك ، كلا ، لا شئ من ذلك .

(أياجو) : — أخشى أن يكون ذلك ، وأرجو أن تعتبر أن كلامى

إنما أملاه حبي لك ، ولكنى أراك تأثرت ، وآمل أن

لا تخال حديثى إليك أكثر من شك لا يودى إلى

نتائج سيئة .

(عطيل) : — لن أفعل ذلك .

(أياجو) : — إن فعلت ذلك ، فإن كلامى يامولاي قد يودى إلى

نتائج ما قصدت إليها ، فإن كاشيو صديقي الحميم ، إننى أراك تأثرت يا مولاي .

(عطيل) : — لم أتأثر كثيراً ، فإني أعتقد أن ديدمونة شريفة (أياجو) . — دام لها ذلك الشرف ، ودام لك ذلك الظن .
(عطيل) . — أو يمكن أن تتغير طبيعتها ، فتخون ، وتجنى على نفسها ، وعلى

(أياجو) . — هذه هي النقطة ، وأن أكن جريئاً معك فلن أحدث كثيراً عن عروض الزواج التي عرضت عليها من بنى جنسها ، وبلادها ، ولونها ، ومكانتها ، حيث ترى طبائع الأشياء تتجه نحو ذلك . وقد يشم الإنسان روائح كريهة من هذه النزوات الجاحدة ، فيعتقدها غير طبيعية . وعذراً ، فلست أحدث عنها بالذات ، ولو أنى أخشى أن تكون حتى في رغبتها وتقديرها ، لا تضعك في مكانة بنى جنسها ولعلها في ذلك تكون نادمة متحسرة .

(عطيل) . — وداعاً الآن ، فإن علمت شيئاً فاخبرني به ، واترك زوجك تراقبها . إذهب ودعنى يا أياجو .

(أياجو) . -- مولاي ، إني أستأذنك في الذهاب

(عطيل) . -- لم تزوجت ؟؟ هذا المخلوق الشريف يرى بلا شك

ويعلم الجرم من أمرها أكثر مما صرح به .

(أياجو) . -- مولاي ، أرجو أن لا تعير هذه المسألة بالا ، دعها

للزمن . ومن الخير أن يعاد كاشيو إلى منصبه ،

وسيشغله دون ريب بكفاءته العظيمة وإن أرجأت

أمر إرجاعه إلى مدة ما . فإنك ستفهم نفسيته وأساليبه

ولاحظ إذا كانت زوجك تلح عليك في إرجاعه ،

فإنك ستدرك الكثير من وراء ذلك ؛ أما في الوقت

الراهن ، فإنني شديد المخاوف ، ولي الحق في ذلك ،

ولكن أرجو أن تعتبرها بريئة

(عطيل) . -- لا تخش علي ، فإنني سأكبح جماحي ، وأتمسك

بأهداب الصبر .

(أياجو) . -- إني أستمحك العذر ، وأستأذنك مرة أخرى

في الذهاب

(عطيل) . -- إن هذا الشخص عظيم الإخلاص ، عارف بسجايا

الناس ، متعمق في فهم غرائز النفوس البشرية ، فإن

اتضححت لى خياتتمـا وغدرها ، تركتها تركة من
لا رجعة بعدها

لعلها خانتنى وغدرت بى ، لآنى أسمر ، ولآنى
لا أحسن أحاديث الظرفاء المنمقة ، أو لآنى تقدمت
بى الأيام . كلا لست الشيخ المتهدم ، ولأكن ترى
أيهم ذلك ؟؟

لقد ثلست عرضى . وأن راحتى بما أعانيه ، فى أن
أمقتها وأكرهها من أعماق قلبى .

ألا سحقاً للزواج . فنحن نحسب أن هاته المخلوقات
الناعمات ، يهبتنا أنفسهن وقلوبهن ، ولا يفكرن فى
صبواتهن .

وودت لو أنى كنت حية تعيش فى قاع سجن سحيق
دون أن تكون لى زوج يشاركنى فيها الآخرون .
ولكن هكذا نكبة العطاء ، وهم وسواد الناس فى هذه
الكارثة سواء بسواء . هذا هو القضاء المقرن . الذى
لا مرد منه ، انه كالموت يلاحقنا ، ونحن أجسة فى
بطون أمهاتنا .

ترويض الشرود

Taming of the Shrew

السنيور « بابتستا » أب كريم ، له بنتان ، إحداهما صيغت من الحنان والبر تدعى « بيانكا » والأخرى قدت من الصخر ، فهي عاتية متمردة تسمى « كاترينا » .. كلاتهما في سن الزواج ، « كاترينا » تكبر « بيانكا » بسنوات ... الأب يؤثر بعطفه وحنانه بيانكا ، لضعفها أمام تمرد أختها الكبرى « كاترينا » ... « كاترينا » لا تترفق بأختها الصغرى ، بل تشور ضدها لأتفه الأسباب ، تضربها غيرة منها وحسداً لكثرة خطاياها ، والأب لا يريد أن يزوج الصغرى قبل أن يهيئ السبيل لزواج الكبرى ، وهو لذلك موزع بين عاطفتين ، عاطفة محبته لابنته الصغرى ، وعاطفة الحذب على ابنته الكبرى ، التي ينفر منها حتى الأقارب ، لسلطة لسانها وشدة كبريائها ...

وأخيراً يفتح الباب ، لينفذ منه شاب له عزيمة من عزمات
الجن ، يستهويه هذا الشرود ، ويحذبه هذا الصلف ، فيقبل
« بتروشيو » Petruchio على خطبة كاترينا ، غير هياب ولا وجل ...
وبصبر وجلد يتمكن من إنزالها على مشيئته ، ويحملها قصرأ على
قبرل خطبته ، ويربها من صنوف الحرمان ما يرد لها صوابها ؛
ويعيد لها اتزانها ؛ فتصبح زوجة مثالية تنصح لبنات جنسها ، وتضع
لهن دستوراً لمعاملة الأزواج ، ونحن نقتطف من القصة حديث
خطبتها ، وما دار بينها وبين « بتروشيو » من حوار ، ثم ننتهي
بنصيحتها للزوجات ...



ترويض الشرود

(المنظر) — غرفة في بيت السنيور « بابتستا » في بادوا

تدخل (الأختان) كاترينا وبيانكا

(بيانكا) : — لا تسيء إلى يا أختاه ولا تسيء إلى نفسك ، إني
لأبغض أن تستبدى بي كأنني بعض الأماء أو العبيد ،
أما هذه الملابس فاطلقتي يدي وأنا أخلعها لك واحدة
واحدة حتى ألصقها بالبدن ، بل وأفعل كل ما تريد
فأنا أدرك ما يجب على نحو من هم أكبر
منى سنأ .

(كاترينا) : — دعينا من الملابس وخبريني أي خطابك أحب
إلى نفسك ولا تكذبي !

(بيانكا) : — صدقيني يا أختاه إن قلت إنى لم ألق بعد الرجل الذى تهواه نفسى .

(كاترينا) : — بل تكذبين — أليس « هورتنسيو » أقربهم إلى قلبك ؟ ؟

(بيانكا) : — إن كنت له محبة فهو لك ، وأقسم لك صادقة أن أكون أول من يساعدك على الفوز به .

(كاترينا) : — هه إذن أنت ترغبين فى الثراء و « جروميو » خير من يحقق آمالك ؟

(بيانكا) : — أمن أجله تحسدننى ؟ إنك لا شك ساحرة وقد سخرت منى كل هذا الوقت ، اطلقي يدى .

(كاترينا) : — سخرية ؟ ! مادام الأمر كذلك فخذى (تضربها) (يدخل بابتستا)

(بابتستا) : — ما هذا يا فتاة ، وما هذا العدوان — قفى جانباً يا بيانكا ، مسكينة إنها تبكى ، إذهى يا صغيرتى إلى عمك ولا تتعرضى لها (إلى كاترينا) يا للعار أيتها الشيطانة لم تسيئين إليها وما أساءت إليك ...

(كاترينا) : — إنها تسيئني بصمتها ولسوف أنتقم منها
(تعدو في أثر بيانكا)

(بابقسا) . — وأماي ! أدخلي يا بيانكا
(تخرج بيانكا)

(كاترينا) . — أنا أعرف أنك تضيق بي ولا تحتملني ، هي فتاتك
الحبيبة ومن أجلها تفعل كل شيء . . . لا بد أن يكون
لها زوج ، أما أنا فأرقص حافية القدمين يوم زفافها
وأذهب إلى الجحيم في سبيل حبك لها . دعني فانا
لا أريد منك حديثاً — سأذهب وأقطع نياط قلبي
بكاء حتى تحين فرصة للإنتقام

(تخرج)

(بابقسا) . — هل ابتلى رجل بما ابتليت به ... من هناك ؟

(يدخل جروميو ومعه لوسنشيرو مرتديا ملابس بالية ويدخل
بتروشيرو وهرتشيرو كعلم موسيقى)

(جروميو) . — عم صباحا أيها الجار العزيز .

(بابقسا) . — عم صباحا يا جروميو ، ومرحباً بكم أيها السادة

(بتروشيو) . -- سيدي أعندك ابنة تدعى كاترينا جميلة
صالحة .

(بابتستا) . -- نعم ياسيدي لى ابنة تدعى كاترينا

(جروميو) . -- ما هكذا يكون الحديث يا بتروشيو

(بتروشيو) . -- أنتقدنى يا سنيور جروميو خل عنك (إلى

بابتستا) أنا ياسيدي من سادة فيرونا وقد سمعت ما

أطربنى عن فضائل إبتك وما تحلى به من جمال وذكاء

ورقة وحياء ، وما يتميز به خلقها من جميل الصفات

كل هذا ياسيدي جرأنى على أن أحل ضيفاً عليك

لأرى بعينى برهان ما سمعت وكتحية الضيف إلى

المضيف أقدم لك هذا الموسيقى فهو من رجالى ماهر

فى الموسيقى وعلى علم بالحساب ليعلم السيدة شيئاً منهما

وإن كنت على ثقة أنها ليست على جهل بهما . لا ترفضه

ياسيدي وإلا أسأت إلى ، اسمه «هورتسيو» من ماتوا

(بابتستا) . -- أهلا بك وبه من أجلك ، أما ابنتى كاترينا فأخشى

ألا تروقك ولشد ما يحزننى هذا .

(بتروشيو) . -- آه أرى أنك لا تقوى على فراقها أو أنك

لا ترتاح إلى صحبتي

(بابتستا) . -- لا تسيء فهمي ياسيدي فكلامي لا يحمل معنى خفياً

فأنا أعني ما أقول — من السيد ومن هو ؟

(بتروشيو) . -- أنا بتروشيو ابن أنتونيو رجل تعرفه كل إيطاليا

(بابتستا) . -- ابن أنطونيو إني أعرفه جيداً وإني أرحب بك

من أجله .

(جروميو يقدم لسنشيو وقد تنكر في ملابس الأساتذة ليعلم

اللغة الإغريقية واللاتينية وغيرهما من اللغات — فيشكره بابتستا

ويدعو الأساتذة إلى رؤية ابنتيه)

(بتروشيو) . -- سيدى السنيور إن مسألتى عاجلة ووقتي قصير

وقد عرفت والدي وعرفتي . أنا وريث ما ترك من

ثروة — ضاعفتها ولم أنقصها — قل لي إذا فزت

برضا ابنتك فكم تهبها مهرأ .

(بابتستا) . -- نصف ضياعي بعد موتى وعشرين ألفاً من

الجنهات عاجلة

(بتروشيرو) . -- وفي نظير ذلك أورثها كل ما أملك من ثروة
إذا ما مت قبلها وليكن هذا ميثاقا نتعهده عليه
منذ الآن .

(بابتستا) . -- لا بل بعد أن تفوز بحبها فهذا هو كل شيء

(بتروشيرو) . -- هدىء من روعك يا أبتاه فهذا أمر يسير ...

أنا نذ لها وأكثر فإن تك متكبرة فعندى إصرار
والنار لا تأكل النار ولكنهما يأكلان ما يغذيهما
من هشيم وإن تكن النار تذكىها بعض الريح فإن
العاصف من الرياح يأتي عليها ولا يبقى شيئا —
وأنا منها كالريح العاصف من النار لا تستطيع
لى دفعا — فأنا خشن الطبع لا أعمد إلى المصانعة
كصبي غر ...

(بابتستا) . -- أسأل لك التوفيق ولكن خذ حذرک مما ستسمعه

من قارص الكلام .

(بتروشيرو) : — إني راسخ كالطود لا تهزه الرياح مهما

عصفت .

(يدخل معلم الموسيقى وقد شجّت رأسه وشحب وجهه فيستفسره
السيد بابتستا الأب عن سر ذلك فيخبره أن كاترينا أهوت على
رأسه بالعود وهو منحن يدرّبها على تناوله)

(بتروشيو) . — لشد ما يزيد هذا في تقديري لها ويضاعف من
حبي كم أود أن ابادلها الحديث .

(بابتستا) . — (إلى معلم الموسيقى) لا يذهب صبرك واحتمل
فلعلها تصلح أو خلها إلى اختها الصغرى فهي أكثر
استعداداً للتعلّم وارق حاشية — والآن يا سنيور
بتروشيو أحب أن تصحبنا أو ابعث اليك بكاترينا
(بتروشيو) . — ارجو أن ترسلها وسأبقى في انتظارها هنا
(يخرج الأب ومعه الباقون)

(بتروشيو) : — (لنفسه) فلا حملن عليها بقوة فإذا صغبت قلت
لها ما أجمل غناء الكروان ، وإذا عبست قلت لها ما
اجمل ما تبدو ورود الصباح قد بللها الندى ، وإذا
اعتصمت بالصمت قلت لها ما اجمل فيض بلاغتك
وإذا أمرتني بالرحيل شكرت لها كأن طلبت إلى طول

الإقامة ، وإذا رفضت الزواج مني سألتها أن نحدد يوم
الزفاف ، والآن ها هي قادمة فاجمع شجاعتك
يا بتروشيو .

(تدخل كاترينا)

عمي صباحا يا كيت أليس هذا اسمك كما سمعت ؟

(كاترينا) : — سمعت ما سمعت وستسمع أكثر من ذلك إسمي

كاترينا لمن يناديني

(بتروشيو) : — بل تكذابين فما أنت إلا كيت ... كيت المليحة

وأحيانا كيت الشقية ، وعلى أية حال كيت ... أجمل

كيت في الأرض ، سيدة من تسمى بهذا الإسم من

النساء ، كيت اللذيذة ، وكل لذيذ كيت . إذن فأنت

كيت ، خذي عني هذا ، أنت سلوتي يا كيت ،

ما سمعت عن رقنك التي تتحدث عنها الدنيا ، وفضائلك

التي سار بحديثها الناس ، وجمالك الذي مهما بولغ في

وصفه لن يصل إلى ما أنت عليه حقاً ، كل ذلك دفعني

إلى أن أتقدم إلى خطبتك .

(كاترينا) : — دفعت !! فليقذفك من هنا من دفعك الينا ، لقد

عرفتك منذ رأيتك فما أنت إلا متاع منقول

(بتروشيو) : — وما المتاع المنقول ؟

(كاترينا) : — واحد من تلك المقاعد

(بتروشيو) : — أصبت - أنا مقعد فيها اجلسي

(كاترينا) : — مثلك يحمل الأثقال كالخمار

(بتروشيو) : — وكذلك النساء خلقن للحمل

(كاترينا) : — مثلك لا تحمله إلا أشر الدواب

(بتروشيو) : — لا تجزعي فلن أثقل عليك بحملي فأنا أعرف

أنك غضة خفيفة .

(كاترينا) : — أخف من أن يلحق بي جلف مثلك ولكني أثبت

من أن يحركني طيشك .

(بتروشيو) : — كأنك نحلة طنانة .

(كاترينا) : — نحلة طنانة وأنت صقر قبيح

(بتروشيو) : — وأنت سلاحفاة بطيئة سيخطفك الصقر .

(كاترينا) : — أجعلت نفسك صقراً وجعلتني سلاحفاة

(بتروشيو) : — لا تغضبي كالزنبار

(كاترينا) : -- إذا كنت زنجاراً فاحذر أن تصيبك إبرتي

(بتروشيو) : -- علاجك أن أنزع إبرتك

(كاترينا) : -- هذا إذا استطعت أن تعرف أين هي ؟

(بتروشيو) : -- ومن لا يعرف أين إبرة الزنجار إنها في ذنبه

(كاترينا) : -- بل في لسانه

(بتروشيو) : -- لسان من ؟

(كاترينا) : -- في لسانك ان هرفت في الحديث ومع السلامة !

(بتروشيو) : -- هكذا ولساني في أثرك - تعالى يا كيت وأنا

أصفح عنك

(كاترينا) : -- تصفح عني خذ (تضربه)

(بتروشيو) : -- أقسم لو عدت لضربتك

(كاترينا) : -- لو فعلت ما كنت سيداً فالسيد لا يضرب

سيدة أبداً .

(بتروشيو) : -- أصغ إلى يا كيت لن تهزئي مني هكذا

(كاترينا) : -- دعني أذهب وإلا نالك أكثر من هذا

(بتروشيو) : -- لن تغضبيني مهما فعلت فأنت ودیعة كالحمامة ،

كذب من قال أنك خشنة سليطة متزمتة ، أنت مرحة

لعوب، جمّة الأدب، بطيئة الرد، حلوة كزهر الربيع
لا تستطيعين حتى أن تقطي جبينك أو تنظري شذرا
أو أن تعضى شفقتك غضبا كما تفعل الفتيات ولا يتملكك
الغضب فى الحديث، بل تملأين نفوس خطابك بهجة
بحديثك العذب الرقيق. كذب الواشون يقولون إنك
تعرجين فى مشيتك - إنك كغصن البان استقامة
واستواء، سمراء كالبنديق، وأحلى مذاقا من ثمره -
دعيني أنظر كيف تمشين إنك لا تعرجين

(كاترينا): — إليك عنى أيها الأحقق، مر من يلوذ بك ومن
يأتمر بأمرك

(بتروشيوف): — ما ازدان مكان بخطوات «ديانا» آلهة الرشاقة كما
ازدانت هذه الغرفة بمشيتك، فلتكونى أنت «ديانا»
ولتخطرى امامى.

(كاترينا): — من اين لك هذه الفصاحة ؟

(بتروشيوف): — إنها عفو الساعة ووحى الخاطر

(كاترينا): — خاطر ذكى ورأس بليد

(بتروشيوف): — او لست ذكيا ؟

(كاترينا) : — بلى ، اطمأن

(بتروشيو) : — لن اطمأن إلا إلى جانبك ، والآن دعينا من كل

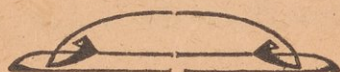
هذا ، المسألة بصراحة ان أباك قد قبلني زوجا لك وقد
اتفقنا على المهر ، وسأكون زوجك شتى أو لم تشائى
انا زوج كفاء لك ، وبحق هذا النور الذى ارى فيه
جمالك وأعشقه لتكونين زوجا لى وان تزوجى غيرى
فأنا الرجل الذى خلق ليروضك ، وليجعل من كيت
الشروود « كيتا » أليفة كغيرها من بنات جنسها ، ها
هو أبوك قادم لا تحاولى الرفض فأنت لى لا محالة .

ويتزوج «بتروشيو» من «كاترينا» بالرغم منها ويمضى فى تذليلها
مصطنعا لها صنوفا من المعاملة تتفاوت بين الحرمان والعطاء ،
والمنع والإغداق ، والشدة واللين ، والتحبب والقسوة ، يجعلها فى
حيرة من أمرها ، لا تدرى أحب هو أم بغض ؟ . . عقل هو أم
جنون ؟ ، ولكنها تلين على أية حال ، وقد انعدمت لديها أسباب
المقاومة وتلح عليها حاجات الجسم من جوع ونوم حتى تلين قناتها
فتستسلم راضية وتكون فى يديه ألعوبة ، يحركها كيف شاء ،
وينطقها بأى حديث ، ويحولها من حال إلى حال ، من كان يظن

أنه بالغ هذا بها . . . من كان يظن أن بتروشيوي يجعل منها مثالا
للزوجة الصالحة الطيبة . . . من كان يظن أن كاترين الشرود
المتعجرفة ، المغترة بنفسها ، السليطة تتوجه بهذا النصيح إلى بنات
جنسها وتقيم به دستوراً بين المرأة والرجل .

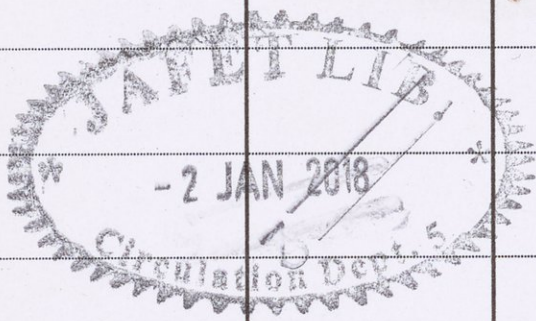
(كاترين) : -- زوجك سيدك ، حياتك ، حاميك ، تاج رأسك
مولاك ، يهتم بأمرك ، ويرعى شأنك ، وفي
سبيل مرضاتك ، يتحمل مشاق العمل في البر
والبحر ، وفي سبيل راحتك يغالب العواصف
ويتعرض للزمهرير ، وأنت مستلقية في فراشك
ناعمة البال ، ولا يبتغي منك جزاء على كدحه
 وجهده ، إلا الحب خالصاً ، والنظرة راضية ،
والطاعة كاملة ، شيء قليل إلى جانب هذا كله
واجب المرأة نحو زوجها ، هو واجب الرعية
نحو راعيها ، فإذا ما أساءت أدها ، وتنكرت
وشقت عصا الطاعة ، فما هي إلا ثائر على
مولاه خائن لعده .

قبيح أن تبلغ بنا البساطة إلى حد أن نجاهر
بالعدوان ، وأن نطالب بالسيطرة والسلطان ،
حيث يجب أن نفيء إلى الطاعة وأن نجنح إلى
السلم ... لم لا تكون أخلاقنا كأجسامنا خلقها
الله ضعيفة رقيقة لا تقوى على جهاد الحياة ...
تعالين لقد كنت مثلكن يملأ رأسي الغرور ،
وقلبي الكبرياء ، وعقلي الطيش ، ادفع السيئة
بالسيئة ، والثورة بالثورة ، ولكني أدركت أن
سيوفنا مفلولة ، وأن قوتنا ضعف ، وأن ضعفنا
لا يقاس به ضعف ، فدعكن من هذا الوهم ،
وخلي عنكن الغرور وابسطن أيديكن لأزواجكن
طاعة وخضوعا ...



REUB LIBRARY

DATE DUE



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00511327

